

٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري

فوائد شهر محرم

كتبه الفقير إلى عفو ربه

أ. د. خالد بن عبد الغفار آل عبد الرحمن

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ

ح خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن ، ١٤٤٥هـ

عبد الرحمن ، أ.د. خالد عبد الغفارعبد الله
فوائد شهر محرم الجزء الأول من سلسلة كتاب ٣٦٠ فائدة علي مدار العام الهجري./ أ.د. خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن
ط ١.- الرياض ، ١٤٤٥هـ
١٢٤ ص ! ١٧ x ٢٤ سم.- (٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري)

رقم الإيداع : ٢٠٠٤٢ / ١٤٤٥
ردمك :٢-٦١٦-٠٣١٦-٠٥-٦٠٣-٩٧٨



بسم الله الرحمن الرحيم





إهــداء

إلى زوجتي وأبنائي الأوفياء الذين كان لهم الفضل بعد الله عزَّ وجلَّ بتشجيعي ودعمي المتواصل لإعداد هذه السلسلة من الفوائد التي تُحفِّز المسلم والمسلمة للعمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما ينفع ويُرضي الله عزَّ وجلَّ.





مُقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. فبين يديك أخي القارئ الكريم الجزء الأول من كتاب "٣٦٠ فائدة " على مدار العام الهجري، وهو كتاب يضمُّ فوائد ودروسًا تُحفِّز المسلم والمسلمة على العمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما يَنفع ويُرضي الله عزَّ وجلَّ. تمَّ تقسيمها على أيَّام السنة الهجريَّة بحيث يستطيع القارئ أن يبدأ بالقراءة من تاريخ اليوم الذي عزم أن يقرأ الكتاب فيه، ويقطف من ثمرات وفوائد ذلك اليوم. وفي كلِّ يومٍ يجد القارئ جملة من المقتطفات التي تدور حول موضوع واحد قد يكون له ارتباط بذلك اليوم أو الأيَّام أو الشهر تحديدًا وقد لا يكون. ولكن الموضوعات تُشكِّل في مجملها خلاصة الفوائد والخواطر والدروس التي تُعين المسلم على التجارة مع الله والعمل الصالح الذي يكون بإذن الله زادًا له في الدنيا ونجاة له في الآخرة برحمة الله ومِنَّته وفضله. وهذا الجزء مُخصَّصٌ لفوائد شهر مُحرَّم، أسأل الله أن يكون فيه النفع والفائدة وحُجَّة لكاتبه وقارئه وكلِّ مَن أعان على نشْره وتوزيعه.

كتبه الفقير إلى عفو ربِّه

أ.د.خالد بن عبد الغفَّار آل عبد الرحمن
drkhalid63@gmail.com

الرياض

شهر الله المحرَّم ١٤٤٥ هـ



فهرس فوائد شهر مُحرَّم

م	أيام السنة الهجرية	عنوان الفائدة	الصفحة
١	١ محرم	شهر الله المحرَّم	٧
٢	٢ محرم	ما الغاية من خلْق الإنسان؟	١١
٢	٣ محرم	اغتنام الأوقات في طاعة ربِّ الأرض والسموات	١٥
٤	٤ محرم	كيف أتوب إلى الله؟	١٩
٥	٥ محرم	الاستقامة على الدين	٢٢
٦	٦ محرم	الثبات زمن الفتن	٢٧
٧	٧ محرم	مواسم الطاعات	٣١
٨	٨ محرم	قصة نجاة موسى عليه السلام وقومه	٣٥
٩	٩ محرم	فضْل صيام يوم عاشوراء ويوم قبله	٣٨
١٠	١٠ محرم	فضْل صوم النوافل	٤٣
١١	١١ محرم	الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات	٤٧
١٢	١٢ محرم	والكاظمين الغيظ	٥١
١٣	١٣ محرم	والعافين عن الناس	٥٥
١٤	١٤ محرم	الصلاة نور	٥٩
١٥	١٥ محرم	الصدقة برهان	٦٣
١٦	١٦ محرم	لا تحاسدوا	٦٦
١٧	١٧ محرم	وبالوالدين إحسانًا	٧٠
١٨	١٨ محرم	لئن شكرتم لأزيدنَّكم	٧٤
١٩	١٩ محرم	إنَّ الله مع الصابرين	٧٨
٢٠	٢٠ محرم	وما يعلم جنود ربِّك إلَّا هو	٨٢
٢١	٢١ محرم	كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة	٨٦
٢٢	٢٢ محرم	وفي أنفسكم أفلا تبصرون	٨٩
٢٣	٢٣ محرم	ادعوني أستجب لكم	٩٢
٢٤	٢٤ محرم	لو يعلم النَّاس ما في النِّداء والصَّفِّ الأوَّل	٩٦
٢٥	٢٥ محرم	خير الزَّاد	١٠٠
٢٦	٢٦ محرم	وكونوا مع الصادقين	١٠٤
٢٧	٢٧ محرم	وقولوا للناس حُسنًا	١٠٨
٢٨	٢٨ محرم	وإذا قلتم فاعدلوا	١١٢
٢٩	٢٩ محرم	يمحق الله الربا	١١٦
٣٠	٣٠ محرم	ويُربي الصدقات	١٢٠



١ محـــرم

شهر الله المحرَّم

هو أحد الأشهر الحُرُم التي قال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(١)].

قال القرطبي:"خصَّ اللهُ تعالى الأشهر الحُرُم بالذكْر ونهى عن الظلم فيها تشريفًا لها، وإن كان منهيًّا عنه في كلِّ الزمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[(٢)].

وعلى هذا أكثر أهل التأويل، أي: لا تظلموا في الأربعة الأشهر أنفسكم، وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ في الاثني عشر"[(٣)].

قال ابن كثير: "وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام، هل هو منسوخ أو مُحكَم على قولين:

الأول وهو الأشهر: أنَّه منسوخ؛ لأنَّه تعالى قال ههنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾[(٤)] وأَمَرَ بقتال المشركين، وظاهر السياق مُشعِرٌ بأنَّه أَمَرَ بذلك أمرًا عامًا، ولو كان مُحرَّمًا في الشهر الحرام لأوشك أن يُقيِّده بانسلاخها، ولأنَّ رسول الله ﷺ حاصَرَ أهل الطائف في شهر حرامٍ وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين[(٥)].

---

(١) سورة التوبة ٣٦.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ١٣٥). الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى:٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية– القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٤) سورة التوبة ٣٦.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤١) برقم (٧٤٨٠) كتاب التوحيد. باب في المشيئة والإرادة" وما تشاءون إلَّا أن يشاء الله"؛ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُننه وأيَّامه= صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقِّق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ. ورواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٠٢) برقم (١٧٧٨) كتاب الجهاد والسير. باب غزوة الطائف. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقِّق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت.



والقول الثاني: إنَّ ابتداء القتال في الشهر الحرام حرامٌ، وأنَّه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾(١). ويُحتمل أنَّه أذِن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم"(٢).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي- رحمه الله- في تفسيره:

"﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾(٣) يحتمل أنَّ الضمير يعود إلى الاثني عشر شهرًا، وأنَّ الله تعالى بيَّن أنَّه جعلها مقادير للعباد، وأن تُعمَر بطاعته، ويُشكَر اللهُ تعالى على مِنَّتِه بها وتقييضها لصالح العباد، فلْتحذروا من ظلْم أنفسكم فيها. ويحتمل أنَّ الضمير يعود إلى الأربعة الحُرُم، وأنَّ هذا نهيٌ لهم عن الظلم فيها خصوصًا، مع النهي عن الظلم كلَّ وقتٍ لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشدَّ من غيرها"(٤).

قال الحافظ ابن رجب- رحمه الله-:" وقد اختلف العلماء في أي الأشهر الحُرُم أفضل؟ فقال الحسن وغيره: أفضلها شهر الله المحرَّم، ورجَّحه طائفة من المتأخِّرين.

وروى وهب بن جرير عن قرة بن خالد عن الحسن، قال: إنَّ الله افتتح السنة بشهر حرام، وختمها بشهر حرام، فليس شهرٌ في السنة بعد شهر رمضان أعظم عند الله من المحرَّم، وكان يُسمَّى شهر الله الأصمَّ من شدَّة تحريمه"(٥).

وقد كانت العرَبُ تُعَظِّمُه في الجاهليَّةِ.

وقد ذكر أهل الأخبار عدَّة أسماءٍ كان يُطلِقها العرب على شهر مُحرَّم، وأشهرها الأصمُّ: وقد سُمِّي بذلك لخُلوِّهِ من القتال؛ فلا يُسمَع فيه صوتُ الأسلحة، أو حركة القِتال. كما كان يُسمَّى صفر: وهو

---

(١) سورة المائدة ٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٤٩). تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ)، المحقِّق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) سورة التوبة ٣٦.

(٤) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٣٦). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ -٢٠٠٠م

(٥) لطائف المعارف لابن رجب (ص ٣٤). لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، الناشر: دار ابن حزم للطباعة. والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.



اسمٌ كان يُطلَق عليه في الجاهليَّة؛ إذ كان يُسمَّى صفر الأوَّل؛ تمييزًا له عن صفر الثاني، ثمَّ غلب اسم مُحرَّم عليه، فصار عَلَمًا له.

ولم يكنِ التَّاريخُ السَّنويُّ معمولًا به في أوَّل الإسلام، حتى كانت خلافةُ عمرَ بنِ الخَطَّاب- رضي الله عنه- ففي السَّنةِ الثَّالثةِ أو الرَّابعةِ من خلافتِه كتب إليه أبو موسى الأشعريُّ- رضي الله عنه-: أنَّه يأتينا منكَ كتبٌ ليس لها تاريخٌ! فجمع عمرُ الصَّحابةَ- رضي الله عنهم- فاستشارهم. فيُقال: إنَّ بعضَهم قال: أرِّخوا كما تُؤرِّخُ الفُرسُ بمُلوكِها، كلَّما هلك مَلِكٌ أرَّخوا بولايةِ مَن بعدَه. فكَرِهَ الصَّحابةُ ذلك. فقال بعضُهم: أرِّخوا بتاريخ الرُّومِ. فكرِهوا ذلك- أيضًا-. فقال بعضُهم: أرِّخوا مِن مَولد النَّبي ﷺ. وقال آخرون: مِن مبعثِه. وقال آخرون: من مُهاجِرِه. فقال عمر: الهجرةُ فرَّقت بين الحقِّ والباطل؛ فأرِّخوا بها. فأرَّخوا من الهجرةِ، واتَّفقوا على ذلك. ثم تشاوروا من أيِّ شهرٍ يكون ابتداءُ السَّنة. فقال بعضُهم: من رمضان؛ لأنَّه الشَّهر الذي أُنزِلَ فيه القرآنُ. وقال بعضُهم: من ربيعٍ الأوَّل؛ لأنَّه الشَّهر الذي قدِم فيه النَّبيُّ ﷺ مُهاجِرًا. واختار عمرُ وعثمانُ وعليٌّ أن يكونَ من المحرَّمِ؛ لأنَّه شهرٌ حرامٌ يلي شهر ذي الحجَّةِ الذي يُؤدِّي المسلمون فيه حجَّهم الذي به تمامُ أركانِ دينِهم، والذي كانت فيه بيعةُ الأنصار للنبي ﷺ والعزيمةُ على الهجرةِ. فكان ابتداءُ السَّنَةِ الإسلاميَّة الهجريَّة من الشهرِ المحرَّم الحرام[١].

وخَرَّجَ النسائي من حديث أبي ذر- رضي الله عنه- قال: سألتُ النَّبيَّ ﷺ: أيُّ الليلِ خيرٌ؟ وأيُّ الأشهر أفضل؟ فقال:" خيرُ الليلِ جوفُهُ، وأفضلُ الأشهرِ شهرُ الله الذي تدعونهُ المحرَّم"[٢].

---

(١) ذكر هذا الأثر السيوطي في جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» (١٥/ ٦٩٥) مع اختلافٍ يسيرٍ، ومثله في كنز العمال (١٠/ ٣١٠). جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، المؤلف: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، المحقِّق: مختار إبراهيم الهائج- عبد الحميد محمد ندا- حسن عيسى عبد الظاهر، الناشر: الأزهر الشريف، القاهرة- جمهورية مصر العربية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المؤلف: علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ)، المحقِّق: بكري حياني- صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٤/ ٢٣٣) برقم (٤٢٠٢) كتاب المناسك. باب أيُّ الأشهرِ الحرُمِ أفضلُ. السنن الكبرى المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣ هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. والحديث ضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (ص ١١٥) برقم (٧٩٤). ضعيف الجامع الصغير وزيادته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: المجدَّدة والمزيدة والمنقَّحة.



وإطلاق النبي ﷺ في هذا الحديث أفضل الأشهر؛ محمولٌ على ما بعد رمضان.

قال الحافظ ابن رجب- رحمه الله-:" وقد سمَّى النبيُّ ﷺ المحرَّمَ شهرَ اللهِ، وإضافته إلى الله عزَّ وجلَّ تدلُّ على شرفه وفضله، فإنَّ الله تعالى لا يضيف إليه إلَّا خواص مخلوقاته، كما نسب محمَّدًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء إلى عبوديته، ونسب إليه بيته وناقته"(١).

أي يُقال:" شهر الله المحرَّم" وهذه إضافة تشريف وتفضيل، كمثل: بيت الله وناقة الله.

وفي الصحيحين من حديث أبي بكرة- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ خطب في حجَّته فقال:" إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خَلَقَ اللهُ السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حُرُم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم، ورجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان"(٢).

ولعلَّنا نستخلص الخلاصة من قول الإمام العزِّ بن عبد السلام- رحمه الله-: وتفضيل الأماكن والأزمان ضربان: أحدهما: دنيوي، والضرب الثاني: تفضيل ديني راجعٌ إلى أنَّ الله يجود على عباده فيها بتفضيل أجر العاملين، كتفضيل صوم رمضان على صوم سائر الشهور، وكذلك يوم عاشوراء،... ففضْلُها راجعٌ إلى جود الله وإحسانه إلى عباده فيها(٣).

يقول الشاعر- ولعلَّه ابن رجب الحنبلي نفسه-:

شهرُ الحرامِ مُباركٌ مَيمونُ ... والصومُ فيه مُضاعَفٌ مَسنونُ

وثَوابُ صَائِمِهِ لوجْهِ إلهِهِ ... في الخُلدِ عندَ مليكِهِ مخزُونُ(٤)

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب (ص ٣٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٦) برقم (٤٦٦٢) كتاب تفسير القرآن. باب قوله (إنَّ عدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خَلَقَ السمواتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم «هو القائم»؛ صحيح مسلم (٣/ ١٣٠٥) (١٦٧٩) كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات. باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض.

(٣) يُنظَر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٤٥) بتصرُّفٍ يسيرٍ. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقَّب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، راجعه وعلَّق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية– القاهرة، (وصوَّرتها دور عدَّة مثل: دار الكتب العلمية- بيروت، ودار أم القرى- القاهرة)، طبعة: جديدة مضبوطة منقَّحة، ١٤١٤هـ - ١٩٩١م.

(٤) لطائف المعارف لابن رجب (ص ٣٦).



٢ محرم

ما الغاية من خلْق الإنسان؟

مع كثرة مشاغل الدنيا والانغماس بملذَّاتها وشهواتها؛ قد يغفل الإنسان عن إدراك الغاية التي خُلِقْنا من أجْلها. فقد احتار بعض الناس- هداهم الله- في الحكمة من وجودهم في هذه الحياة ووقعوا في حيرةٍ وتخبُّطٍ وضلالٍ حتَّى قال أحدُهم:

جئتُ لا أعلمُ من أين ولكنّي أتيتُ

ولقد أبصرتُ قُدَّامي طريقًا فمشيتُ

وسأبقى ماشيًا إن شئتُ هذا أم أَبَيتُ

كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟

لستُ أدري!

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجود؟

هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود؟

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود؟

أتمنَّى أنَّني أدري ولكن ... لستُ أدري![1].

وقد يصل الحال ببعض الناس أن يُقدِّم الدنيا على الآخرة كما قال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾[2].

فحالهم كما وصفهم سبحانه وتعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[3].كما قال ابن كثير- رحمه الله-: أي أكثر الناس ليس لهم علمٌ إلَّا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حُذَّاقٌ أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأنَّ أحدهم مُغفَّلٌ لا ذهن له ولا فكرة.

وقال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-: هم الكُفَّار، يعرفون عُمران الدنيا، وهم في أمر الدين جُهَّال.

---

(١) من قصيدة الطلاسم، كما في ديوان إيليَّا أبو ماضي (ص ١٩١) دار العودة- بيروت.

(٢) سورة الأعلى آية ١٦-١٧.

(٣) سورة الروم ٧.



قال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنَّه يُقلِّب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يُحسن أن يُصلِّي[(١)].

والواجب على المسلم وعلى العقلاء من الناس أن يُدركوا الغاية من خلْقهم ويعملوا على تحقيقها. ولهذا بيَّن الله سبحانه وتعالى في كتابه العظيم الغاية من خلْق الجنِّ والإنس؛ فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[(٢)].

قال العلَّامة السعدي– رحمه الله– في تفسير هذه الآية العظيمة: هذه الغاية التي خَلَقَ الله الجنَّ والإنسَ لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمِّنة لمعرفته ومحبَّته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عمَّا سواه، وذلك يتضمَّن معرفة الله تعالى، فإنَّ تمام العبادة مُتوقِّفٌ على المعرفة بالله، بل كلَّما ازداد العبد معرفةً لربِّه؛ كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خَلَق اللهُ المكلَّفين لأجله، فما خَلَقَهم لحاجةٍ منه إليهم[(٣)].

والمقصود بالعبادة كما عرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى– بقوله: العبادة هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبَّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة والزكاة والصيام والحجُّ وصدْق الحديث والأمانة وبرُّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكُفَّار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم، والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذِّكْر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حُبُّ اللهِ ورسولِه، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحُكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكُّل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

وذلك أنَّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خَلَقَ الخلْق لها، وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوحٌ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[(٤)]. وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم، وقال تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٠٥).

(٢) الذاريات آية ٥٦-٥٨.

(٣) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨١٣).

(٤) الأعراف ٥٩.



وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[(١)]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[(٢)]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[(٣)] [(٤)].

كما تتضمَّن الغاية من خلْق الإنسان معنى الابتلاء والامتحان للعباد، فالله عزَّ وجلَّ يمتحن عباده في هذه الدنيا، ومدَّة هذا الامتحان هي مدَّة حياة الإنسان على هذه الأرض، فإذا انتهت حياته عليها انتهت مدَّة امتحانه ليحاسبه الله بعد ذلك على عمله، إنْ خيرًا فخيرًا، وإنْ شرًا فشرًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[(٥)].

قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: وفي ذكْرهما- أي الموت والحياة- تخلُّصٌ إلى ما يترتَّب عليهما من الآثار التي أعظمها العمل في الحياة والجزاء عليه بعد الموت، وذلك ما تضمَّنه قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ فإنَّ معنى الابتلاء مُشْعِرٌ بترتُّب أثرٍ له، وهو الجزاء على العمل للتذكير بحكمة جعْل هذين الناموسين البديعين في الحيوان لتظهر حكمة خلْق الإنسان ويُفضِيا به إلى الوجود الخالد، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[(٦)][(٧)].

وفي الحديث المتَّفق على صحَّته[(٨)] عن أبي سفيان صخر بن حرب- رضي الله عنه- قال: قال هِرَقل: فماذا يَأمُرُكم؟ (يعني: النبيَّ ﷺ) قال أبو سفيان: قلتُ: يقول:" اعبدوا الله وَحدَه لا تُشرِكوا بِهِ

---

(١) النحل ٣٦.

(٢) الأنبياء ٢٥.

(٣) الأنبياء ٩٢.

(٤) العبودية (ص ٤٤ - ٤٥). العبودية، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: السابعة المجدَّدة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٥) الملك ٢.

(٦) المؤمنون ١١٥.

(٧) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٣). التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر- تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

(٨) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٩) برقم (٧) كتاب بدء الوحي. باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؛ ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٩٤) برقم (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير. باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام.



شيئًا، وَاتركوا ما يَقول آبَاؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدْق، والعفاف، والصلة". فكان ممَّا سأل أبا سفيان سؤاله عمَّا كان يأمرهم به النبي ﷺ فأخبره بأنَّه يأمرهم أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئًا، فلا يعبدوا غير الله، لا ملكًا ولا رسولًا، ولا شجرًا ولا حجرًا، ولا شمسًا ولا قمرًا، ولا غير ذلك، فالعبادة لله وحده، وهذه دعوة الرسل، فجاء النبي ﷺ بما جاءت به الأنبياء من قبله بعبادة الله وحده لا شريك له. ولهذا قال ﷺ- كما في صحيح البخاري-:" لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابنَ مريمَ، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه"[١].

الخلاصة: أنَّ الغاية من خلْق الإنسان هي العبادة بمفهومها الشامل الذي يجعل المسلم يرتبط في دنياه بآخرته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٢]. كما تجعله يتذَّكر ويُسخِّر حياته وأعماله في خدمة الغاية البعيدة التي خُلِقنا من أجْلِها وهي عبادة الله. كما قال الطغرائي في لاميته:

ترجو البقاءَ بدارٍ لا ثباتَ لها فهــل سمــــعتَ بظلٍ غيرِ مُنتقـــلِ؟!
ويا خبيرًا على الأسرارِ مُطَّلِعًا اصمتْ! ففي الصمتِ منجاةٌ مِنَ الزلَلِ
قد هيَّئوكَ لأمرٍ لو فطِنتَ له فاربأْ بنفسِكَ أن تَرعى معَ الهَمَلِ[٣]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٧) برقم (٣٤٤٥) كتاب أحاديث الأنبياء. باب قول الله تعالى: {واذكرْ في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها}.

(٢) الأنعام ١٦٢.

(٣) لامية الطُغرائي (ص ١٨) والبيت الثالث هنا فيه:

قد رشَّحُوك لأمرٍ لو فطنتَ له .... لامية الطُغرائي، علي جواد الطاهر، بغداد- ١٩٦٢م، مطبعة العاني.

٣ محرم

اغتنام الأوقات في طاعة ربِّ الأرض والسموات

إنَّ مرور الشهور والأعوام؛ إيذانٌ بقُرْب الارتحال من دنيا الممَرِّ إلى دار المستقَرِّ، ولقدكان السلف الصالح- رحمهم الله- يغتنمون الليالي والأيَّام بما يُقرِّبهم إلى ربِّهم الملِك العلَّام. فلا يمرُّ عليهم يومٌ ولا ليلةٌ بلا فائدة ولا ثمرة، طرحوا عنهم اللهو واللعب وإضاعة الأوقات فيما لا فائدة فيه ولا نفع، فهُم بين علمٍ يتعلَّمونه، وجهادٍ في سبيل الله وطاعةٍ وعبادةٍ، وقيامٍ بحقوق الأسرة، وصلة رحمٍ، وزيارة مريضٍ، ودعوةٍ إلى الله- عزَّ وجلَّ-.

وإنَّ من رحمة الله بعباده أنْ نوَّع لهم العبادات والشعائر، ولم يجعلْها على نمطٍ واحدٍ، وفي هذا ترغيبٌ للنفس على الطاعة، وتربية لها على الالتزام والجدِّ في تحصيل الثواب، ومن ذلك أنَّ الصلاة فريضة يوميَّة، وهي عمود الدين وركن من أركان الإسلام، تُهذِّب النفس، وتُطهِّر القلب، وتحول بين الإنسان وبين المنكرات، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1].

والصيام عبادة جليلة مفروضة في شهر رمضان، أيَّامًا معدودات، يستطيع المسلم أداءها دون إرهاق أو مشقَّة زائدة. وفي هذه العبادة من الفضل والفضائل ما يزيد في المؤمن ملَكة التقوى، ويُعوِّده على الخضوع والعبودية لربِّ العالمين، كما يُهذِّب النفس بما يغرسه فيها من خوف الله- عزَّ وجلَّ- ومراقبته في السرِّ والعلن، فالصوم سِرٌّ بين العبد وربِّه، وهو أبعد العبادات عن الرياء.

والزكاة عبادة ماليَّة محضة لا دخل للبدن فيها، سوى النِّيَّة الصادقة بأداء ما فرض الله على الأغنياء في أموالهم، وهي طهارةٌ للمال والنفس من الشُّحِّ والبُخل، وتُطهِّر المال بالنماء والخير والبركة، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[2].

وأمَّا الحجُّ فريضة العمر الذي فُرِض على المسلم مرَّة واحدة، فهو يجمع بين العبادة البدنيَّة والماليَّة.

وهكذا فمواسم العبادة والطاعة بمثابة محطَّات لتُزوِّد المسلم بالإيمان والتقوى والعمل الصالح بما يُغذِّي الروح والبدن، ويجعل المؤمن في نشاط دائم، وهو يُؤدِّي هذه العبادات الفكريَّة والروحيَّة والبدنيَّة، فهو في محراب الصلاة يُناجي خالقه بالقرآن الكريم والذِّكْر الحكيم، وفي الصيام يحفظ سرَّه

---

(١) العنكبوت ٤٥.

(٢) التوبة ١٠٣.



ويصبر على شهوات النفس والبدن، وفي الزكاة يُطهِّر نفسه وماله، وفي الحجِّ يُؤدِّي المناسك من طواف وسعي ورمي للجمار ووقوف بعرفات والمشعر الحرام ، وهكذا يبقى المؤمن في شوقٍ للطاعة والعبادة على مرِّ السنين وتوالي الأيَّام.

فاحرصْ- أخي المسلم- على اغتنام أوقاتك في الطاعة، فقد أنَّب الله تعالى الكُفَّار لما أعطاهم العمر المديد فلم يستفيدوا منه؛ فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[1]. ومدح المؤمنين لأنَّهم استفادوا من أعمارهم، واغتنموا أوقاتهم، فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[2].

فوبَّخ هؤلاء- مع أنَّه عمَّرهم- لأنَّهم لم يستفيدوا من العمر، ومدح هؤلاء لأنَّهم اغتنموا الأيَّام الخالية في طاعة الله تعالى، وهذا المبدأ مُهِمٌّ للغاية أن يعلم الإنسان قيمة عمره. وأنَّه سيُسأل عن العمر عمومًا، وعن مرحلة الشباب خصوصًا؛ لأنَّها مرحلة فيها نشاط وقوَّة وحيويَّة، ففي أيِّ شيءٍ صَرَفَها؟ وفيمَ قضاها؟ وكذلك سيُسأل عن الصحَّة؛ لأنَّها نعمةٌ يستطيع أن يفعل بها أكثر ممَّا يفعل حال المرض، وسيُسأل كذلك عن أوقات الفراغ، وقد بيَّن النبي ﷺ هذا المفهوم عندما قال:" لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتَّى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه" رواه الترمذي[3].

---

(١) فاطر ٣٧.

(٢) الحاقة ٢٤.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦١٢) برقم (٢٤١٧) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. باب في القيامة، وقال عقبه:" هذا حديث حسن صحيح". سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥ م. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٤١٧). صحيح وضعيف سنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية– المجاني– من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

وقال أيضًا:" اغتنمْ خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحَّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك" رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما(١).

وللأسف الشديد فإنَّ كثيرًا من الناس لا يدرون قيمة عمرهم، قال رسول الله ﷺ:"نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحَّة والفراغ" متفق عليه(٢) ، فالحديث يدلُّ على توفُّر أمرين: الوقت وقوَّة الجسد، الوقت الذي يمكن ملؤه، وقوَّة الجسد المعينة على العمل، وفترة الشباب تكون زاخرة بهذين الأمرين.

وكان الإمام البخاري- رحمه الله- كثيرًا ما يتمثَّل بهذين البيتين:

اغتنمْ في الفـــراغ فضْلَ ركوعٍ فعسى أن يكون موتُك بغتة

كم صحيحٍ رأيتَ من غير سقمٍ ذهبتْ نفسُه الصحيــحةُ فلتة(٣)

وفعلًا فقد تُوفِّي- رحمه الله- فجأة، ولكن أي شيء خلَّف البخاري؟ ماذا ترك محمد بن إسماعيل- رحمة الله عليه-؟ ترك هذا الكتاب العظيم الذي هو أصحُّ كتابٍ بعد كتاب الله، ومنه ينهل الواردون، ويأتي المتعطِّشون للعلم، ويُستدلُّ بأحاديثه في الخطب والدروس والمواعظ، فكم جاء لأبي عبد الله في قبره من حسنات!!

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٤٧) برقم (٢٩٢٧) كتاب الرقاق؛ والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٠٠) برقم (١١٨٣٢) كتاب المواعظ. المستدرك على الصحيحين للحاكم، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم النيسابوري (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المحقِّق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، دار النشر: دار الحرمين، البلد: القاهرة– مصر، سنة الطبع: ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م. السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حقَّقه وخرَّج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدَّم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٤٣) برقم (١٠٧٧). صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم (٦٤١٢) كتاب الرقاق. باب لا عيش إلَّا عيش الآخرة.

(٣) أورده ابن أبي الدنيا عن رجلٍ من الأنصار كما في قصر الأمل لابن أبي الدنيا (ص ١٤٦). قصر الأمل، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقِّق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم- لبنان / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م. وذكره ابن حجر عنه كما في ترجمته للإمام البخاري في مُقدِّمة شرحه للصحيح. فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٨١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩هـ، رقَّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصحَّحه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلَّامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

والخلاصة: أنَّ الوقت هو الحياة، وأوْقاتنا هي رأس مالنا في هذه الدنيا، ومن فرَّط في وقته وعمُره فقد فرَّط في خيرٍ كبيرٍ، وقد جاء في الأثر أنَّه:" ما من يوم ينشقُّ فجرُه إلَّا ويُنادي: يا ابن آدم؛ أنا خلقٌ جديدٌ، وعلى عملك شهيدٌ، فتزوَّد منِّي، فإنِّي لا أعود إلى يوم القيامة"[١]. وكان الحسن البصري- رحمه الله- يقول:" يا ابن آدم إنَّما أنت أيَّام؛ إذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك"[٢]. وكان- رحمه الله- يقول عن حال السَّلف:" أدركتُ أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدَّ حرصًا منكم على دراهمكم ودنانيركم"[٣]. وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-:" ما ندمتُ على شيءٍ ندمي على يومٍ غربتْ شمسُه، نقص فيه أجلي، ولم يزددْ فيه عملي"[٤].

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي عندما قال:

دَقَّـاتُ قَلبِ المَـــــرءِ قائِلَةٌ لَهُ ... إِنَّ الحيـــــاةَ دَقـائِقٌ وَثَـواني

فَارْفَعْ لِنَفسِكَ بَعدَ مَوتِكَ ذِكْرَها ... فَالذِّكرُ لِلإِنسانِ عُمْرٌ ثاني[٥]

---

(١) لم أقف عليه في كتب الحديث والآثار والتخريج، وقد ذكره عددٌ من المعاصرين ممَّن كتب في الزهد والرقاق؛ يُنظَر: مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار (١/ ٨٥). مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار، المؤلف: أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ).

(٢) يُنظَر: الزهد لأحمد بن حنبل (ص ٢٢٥)؛ حلية الأولياء (١٨٤/٢). الزهد، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت٤٣٠ هـ)، الناشر: مطبعة السعادة- بجوار محافظة مصر، عام النشر: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٣) لم أقف عليه في كتب الحديث والآثار والتخريج، وقد ذكره عددٌ من المعاصرين ممَّن كتب في الزهد والرقاق؛ يُنظَر: مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار (٣/ ٢٩).

(٤) لم أقف عليه في كتب الحديث والآثار والتخريج، وقد ذكره عددٌ من المعاصرين ممَّن كتب في الزهد والرقاق؛ يُنظَر: مفتاح الأفكار للتأهُّب لدار القرار (٣/ ٢٩).

(٥) يُنظَر ديوان أحمد شوقي (٢/ ٥٧٥). ديوان شوقي. توثيق وتبويب وشرح وتعقيب الدكتور: أحمد محمد الحوفي، الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة- القاهرة.



٤ محرم

كيف أتوب إلى الله؟

التوبة واجبة شرعًا، لازمة عقلًا؛ لأنَّها من أصول الإسلام، وقواعد الدين، وأوَّل منازل السالكين، وقد دعا الله عباده إليها، ودلَّهم عليها، وأمرهم بها؛ فقال مخاطبًا لهم: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[٢].

وأخرج البخاري عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:"وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"[٣]، وفي صحيح مسلم أنَّ النبي ﷺ قال:"وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ"[٤].

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في تعريف مفهوم التوبة النصوح: النصح في التوبة يتضمَّن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها؛ بحيث لا تدع ذنبًا إلَّا تناولتْه.

الثاني: إجماع العزم والصدق بكُلِّيَّته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردُّد ولا تلوُّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كلَّ إرادته وعزيمته مُبادِرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة ممَّا عنده. لا كَمَنْ يتوب لحفْظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته، ولحفْظ حاله أو لحفْظ قُوَّته وماله، أو استدعاء حمْد الناس أو الهرب من ذمِّهم، أو لئلَّا يتسلَّط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحَّتها وخلوصها لله عزَّ وجلَّ.

فالأوَّل يتعلَّق بما يتوب منه، والثالث يتعلَّق بمَن يتوب إليه، والأوسط يتعلَّق بذات التائب ونفسه، فنُصْحُ التوبة الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أنَّ هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمَّنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة[٥].

---

(١) النور ٣١.

(٢) التحريم ٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم (٦٣٠٧) كتاب الدعوات. باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٥) برقم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه.

(٥) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (١/ ٣١٧). مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، المحقِّق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.



والتَّوْبةُ لغة تعني: الرُّجُوعَ من الذَّنْبِ. وتابَ إِلى اللَّهِ يَتُوبُ تَوْبًا وتَوْبةً ومَتابًا: أي أَنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إِلى الطاعةِ، ورَجلٌ تَوَّابٌ: تائِبٌ إِلى اللَّهِ. وتاب العبد: رجع إلى طاعة ربِّه، وعبدٌ توَّابٌ: كثير الرجوع إلى الطاعة. وأصل التوبة الرجوع؛ يقال: تاب وثاب وآب وأناب: أى رجع.

والتوبة شرعًا تعني: الرجوع إلى الله تعالى فيما أَمَرَ به وترْك ما نهى عنه.

"فإذا أراد الله بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة والندم، والانكسار والذُّلِّ والافتقار، والاستعانة به، وصدْق اللجأ إليه، ودوام التضرُّع والدعاء، والتقرُّب إليه بما أمكن من الحسنات؛ ما تكون تلك السَّيِّئة به سببَ رحمته، حتَّى يقولَ عدوُّ الله: يا ليتني تركتُه ولم أوقعْه، وهذا معنى قول بعض السلف: إنَّ العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنَّة، ويعمل الحسنة يدخل بها النَّار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه مُشفقًا وجِلًا باكيًا نادمًا، مُستحيًا من ربِّه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، مُنكسِر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتَّب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتَّى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنَّة، ويفعل الحسنة فلا يزال يمنُّ بها على ربِّه ويتكبَّر بها، ويرى نفسه ويعجب بها ويستطيل بها ويقول: فعلتُ وفعلتُ؛ فيُورثه من العجب والكبر، والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه، فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمرٍ يكسره به، ويذلُّ به عنقه، ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلَّاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإنَّ العارفين كلَّهم مجمعون على أنَّ التوفيق أنْ لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أنْ يكلك الله تعالى إلى نفسك"[(١)].

وشروط التوبة كما ذكرها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز – رحمه الله تعالى- ثلاثة:" الندم على الماضي ممَّا فعلتَ ندمًا صادقًا، والإقلاع عن الذنوب ورفضْها وترْكها مُستقبَلًا طاعةً لله وتعظيمًا له، والعزم الصادق أن لا تعود إلى تلك الذنوب، هذه أمورٌ لا بُدَّ منها:

أوَّلًا: الندم والحزن على الماضي منك.

ثانيًا: الإقلاع والترْك لهذه الذنوب دقيقها وجليلها.

ثالثًا: العزم الصادق أن لا تعود فيها.

---

(١) يُنظَر من قوله: (فإذا أراد اللهُ بعبده خيرًا ..) إلى هنا: الوابل الصيب لابن القيم (ص ١١). الوابل الصيب من الكلم الطيب، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق : محمد عبد الرحمن عوض، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م.



فإن كانت عندك حقوقٌ للناس: أموالٌ أو دماءٌ أو أعراضٌ؛ فأدِّها إليهم، هذا أمرٌ رابعٌ من تمام التوبة، عليك أن تُؤدِّي الحقوق التي للناس، إن كان قصاصًا تُمكِّن من القِصاص إلَّا أن يسمحوا بالدِّية، وإن كان مالًا تَرُدُّ عليهم أموالهم إلَّا أن يسمحوا، وإن كان عِرْضًا كذلك، تكلَّمتَ في عِرْضهم واغتبتَهم تستسمحهم، وإن كان استسماحُهم قد يُفضي إلى شرٍّ فلا مانع من تركه، ولكن تدعو لهم، وتستغفر لهم، وتذكرهم بالخير الذي تعلمه منهم في الأماكن التي ذكرتَهم فيها بالسوء، فيكون هذا كفارةً لهذا، وعليك البدار قبل الموت، وقبل أن ينزل بك الأجل، عليك البدار والمسارعة، ثم الصبر والصدق، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١). افهمْ معنى: وَلَمْ يُصِرُّواْ يعني: لم يقيموا على المعاصي، بل تابوا وندموا وتركوا، وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، ثم قال بعد هذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾(٢). هذا جزاء التائبين الذين أقلعوا ولم يُصرُّوا؛ مغفرة وجنَّة، فأنتَ- إن شاء الله- منهم إذا صدقتَ في التوبة"(٣).

والخلاصة: أنَّ التوبة واجبةٌ وفرضُ عينٍ في كلِّ حالٍ، وتتأكَّد التوبة لمن عمل ذنبًا ولو صغيرًا، وشروطها ثلاثة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم على أنْ لا يعود، ثم ردُّ المظالم إلى أهلها؛ إن كان الذنب في حقِّ العباد، فلا تُقبَل توبة المتمادِي في الفسوق والمقيم على الذنب.

ولله درُّ القائل:

يا نفسُ تُوبي فإنَّ الموتَ قد حانَا	واعصي الهوى فالهوى ما زالَ فتَّانَا
أمَا تَرينَ المنـــــايا كيفَ تلقطُنـا	لقطًا فتُلـــحِقُ أُخـــــرانا بأُولانَا
في كلِّ يومٍ لنا مَيْتٌ نُشَـــــيِّعُهُ	نُحيي بمصـــــــــرَعِه آثارَ مَوْتَانَا(٤)

---

(١) آل عمران ١٣٥.

(٢) آل عمران ١٣٦.

(٣) مجموع فتاوى ابن باز (٢٨/ ٤٤٧-٤٤٩). مجموع فتاوى العلَّامة عبد العزيز بن باز- رحمه الله-، المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر.

(٤) ذكرها ابن الجوزي في المدهش (ص ٣٧٥). وابن رجب الحنبلي في كتابه شرح حديث: (إنَّ أغبطَ أوليائي) (ص ٧٦٨) ضمن مجموعة رسائل ابن رجب. المدهش، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقِّق: الدكتور مروان قباني، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، المؤلف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دراسة وتحقيق: أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

٥ محرم

الاستقامة على الدين

الاستقامة:" كلمةٌ آخِذةٌ بمجامع الدين كلِّه، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، وهي تتعلَّق بالأقوال والأفعال، والأحوال والنِّيَّات"، ولهذا رتَّب الله- سبحانه- على الاستقامة الأجر العظيم فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾(١)، هذا في الآخرة، أمَّا في الدنيا فإنَّ الله- عزَّ وجلَّ - قال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾(٢).

قال ابن كثير- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾(٣): أي أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرعه الله لهم(٤).

وقال العلَّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي- رحمه الله- في تفسير قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾(٥): أي: اسلكوا الصراط الموصِل إلى الله تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتِّباع الأمر، واجتناب النهي، هذه هي حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك(٦).

وقال الإمام ابن رجب- رحمه الله-: الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، من غير تعرُّج عنه، يمنةً ويسرةً، ويشمل ذلك: فِعْل الطاعات كلِّها الظاهرة والباطنة، وترْك المنهيات كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيةُ جامعةً لخصال الدين كلِّها"(٧).

---

(١) فصلت ٣٠.

(٢) الجن ١٦.

(٣) فصلت ٣٠.

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٥).

(٥) فصلت ٦.

(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٤٥).

(٧) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠). جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقِّق: شعيب الأرناؤوط- إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.



وكان الصالحون دومًا يسألون الله الاستقامة ومجاهدة النفس لنيلها، فكان الحسن يقول: اللهمَّ أنتَ ربُّنا؛ فارزقْنا الاستقامة(١). وقال ابن المنكدر: كابدتُ نفسي أربعين سنة حتَّى استقامتْ(٢). فإذا وُفِّق العبد المؤمن للاستقامة على دين الله؛ فإنَّ عليه أن يجاهد نفسه على الثبات، قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾(٣).

قال الحافظ ابن كثير-رحمه الله-: يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة(٤).

وقال ابن عطية: أمْرُ النبي ﷺ بالاستقامة وهو عليها؛ إنَّما هو أمْرُ بالدوام والثبات(٥).

إنَّ الاستقامة لنعمة عظيمة ومنحة جليلة، فمَن وُفِّق للاستقامة على دين الله؛ فهذه من أجَلِّ نِعَمِ الله عزَّ وجلَّ عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: الكرامة لزوم الاستقامة، وإنَّ اللهَ لم يُكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يُحبُّه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٦) (٧).

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٣/ ١٥٤). تفسير عبد الرزاق، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة: الأولى، سنة ١٤١٩هـ

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٤٧). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدَّة دور منها، ١- دار الكتاب العربي- بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩ هـ بدون تحقيق).

(٣) هود ١١٢.

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٤).

(٥) تفسير ابن عطية= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٢١١). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقِّق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٦) يونس ٦٢.

(٧) أمراض القلوب وشفاؤها (ص ٤٩). أمراض القلب وشفاؤها، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، الناشر: المطبعة السلفية- القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.



كما أمر الشارعُ بسلوك طريق الاستقامة والترغيب في ذلك، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(١).

قال الشيخ أبو بكر الجزائري: من هداية الآيات: وجوب الاستقامة على دين الله تعالى عقيدةً وعبادةً وحُكمًا وأدبًا (٢).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي- رضي الله عنه- قال: قُلتُ: يا رسول الله؛ قُلْ لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال:" قُلْ آمنتُ بالله ثم استقمْ" رواه مسلم(٣).

فعلى المسلم أن يُكثر من الدعاء بالثبات على الاستقامة، فعن أنس- رضي الله عنه- قال:" كان رسول الله ﷺ يُكثِر أن يقول:" يا مُقلِّبَ القلوبِ؛ ثبِّتْ قلبي على دينِكَ" قلتُ: فقلتُ: يا نبي الله؛ آمنَّا بك وبما جئتَ به، فهل تخاف علينا؟ قال: نعم؛ إنَّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يُقلِّبُها كيف شاء" أخرجه الترمذي(٤). قال الإمام المباركفوري- رحمه الله-:" ثبِّتْ قلبي على دينِكَ" أي اجعله ثابتًا على دينك، غير مائل عن الدين القويم، والصراط المستقيم(٥).

قال الحافظ ابن رجب- رحمه الله-: وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾(٦)؛ إشارة إلى أنه لا بُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامة المأمور بها، فيَجبُرُ ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى

---

(١) هود ١١٢.

(٢) أيسر التفاسير للجزائري (٢/ ٥٨٤). أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم (٣٨) كتاب الإيمان. باب جامع أوصاف الإسلام. وهو عنده بلفظ:" قلْ آمنتُ بالله فاستقمْ".

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٤٤٨) برقم (٢١٤٠) أبواب القدر. باب ما جاء أنَّ القلوب بين أصبعي الرحمن، وقال عقبه:" هذا حديث حسن". وهو أيضًا في مسند الإمام أحمد (١٩/ ١٦٠) برقم (١٢١٠٧). مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١ هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. والحديث صحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٣٧). مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١ هـ)، المحقِّق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي– بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.

(٥) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٩١). تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (المتوفى: ١٣٥٣ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت.

(٦) فصلت ٦.



الاستقامة، فهو كقول النبي ﷺ لمعاذٍ:" اتَّقِ الله حيثما كنتَ، وأتبعِ السيئة الحسنة تمحها"رواه الترمذي[١]، وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ الناس لن يطيقوا الاستقامة حقَّ الاستقامة، ففي حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال:" استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أنَّ خير أعمالكم الصلاة، ولا يُحافِظُ على الوضوء إلَّا مؤمنٌ" أخرجه ابن ماجه[٢]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال:" سدِّدوا وقاربوا"[٣]، فالسدادُ هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد.

والخلاصة: أنَّ أصل الاستقامة الثبات على التوحيد، وعدم الميل عنه، ومحلُّها القلب، فمتى استقام القلب على معرفة الله- عزَّ وجلَّ-، وخشيته وإجلاله، ومهابته ومحبَّته، وإرادته ورجائه، ودُعائه والتَّوكُّل عليه، والإعراض عمَّا سواه؛ استقامت الجوارح كلُّها على طاعته، فإنَّ القلب هو ملِك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملِك استقامت جنوده ورعاياه، وأعظم ما يُراعى استقامته بعد القلب من الجوارح اللِّسان، فإنَّه ترجمان القلب المعبِّر عنه. فعن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" ألا وإنَّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب "رواه البخاري[٤]. وعن أنس عن النبي ﷺ قال:" لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتَّى يستقيم لسانه" رواه أحمد[٥].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٦) برقم (١٩٨٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في معاشرة النساء. وقال عقبه:" هذا حديث حسن صحيح". والحديث صحَّحه الألباني بمجموع طرقه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٣٦٢). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ١٠١) برقم (٢٧٧) كتاب الطهارة وسننها. باب المحافظة على الوضوء. سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية- فيصل عيسى البابي الحلبي. والحديث صحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٩٦).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٦) برقم (٣٩) كتاب الإيمان. باب الدينُ يُسرٌ. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧١) برقم (٢٨١٨) كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار. باب لن يدخل أحدٌ الجنَّة بعمله بل برحمة الله تعالى.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم (٥٢) كتاب الإيمان. باب فضْل مَنِ استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) كتاب المساقاة. باب أخْذ الحلال وترْك الشبهات.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٢٠/ ٣٤٣) برقم (١٣٠٤٨). مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقِّق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ٨٢٢) برقم (٢٨٤١).

وأخيرًا عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- عن النَّبيِّ ﷺ قال:" إذا أصبح ابنُ آدم فإنَّ الأعضاء كلَّها تُكفِّر اللِّسان، فتقول: اتقِ الله فينا، فإنَّما نحن بك، فإنِ استقمتَ استقمنا، وإنِ اعوججتَ اعوججنا" رواه الترمذي[١].

ويُعجبني قول القائل- وقد أحسن وأبدع- عن الاستقامة:

بالأمسِ كنتُ على شفا جُرفٍ هَوَى ... والذَّنبُ في ظُلُمَاتِهِ بُرْكَانِي

مـا كنتُ أعلمُ أنَّ رُوحـــي تَائِهَةٌ ... حتَّى اســتقرَّ النُّورُ فِي أَرْكَـــانِي

ثُمَّ اســتقامَ القلبُ فِي دَرْبِ الهُدَى ... وَجَوَارِحِي حتَّى استَقَامَ لِسَانِي

إنَّ الهِـــدَايَةَ مِثْلُ غَيثٍ مَاطِـــرٍ ... تَرْوِي ضُلُـــوعَ القَلْبِ بِالْقُرْآنِ

وَمَنِ اســتَقَامَ عَلَى الصِّـرَاطِ طَرِيقُهُ ... كَانَتْ نِهَايَتُهُ بِأَعْلَـــى جِنَانِ[٢]

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٦) برقم (٢٤٠٧) أبواب الزهد. باب ما جاء في حفظ اللِّسان. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٤٠٧). صحيح وضعيف سنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

(٢) لم أقف على قائلها.



٦ محرم

الثبات زمن الفتن

التثبيت: مِن ثَبَتَ الشيءُ يثبت ثبوتًا؛ أي: دام واستقرَّ فهو ثابت. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "التثبيت هو التثبُّت؛ كقوله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[١]. والتثبُّت: هو القوَّة والمكنة، وضده الزلزلة والرجفة.

وقال ابن القيم:" الخلْق كلُّهم قسمان: مُوفَّقٌ بالتثبيت، ومخذولٌ بترْك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومَنشؤه من القول الثابت وفِعْل ما أُمِر به العبد، فبهما يُثبِّت الله عبده، فكلُّ مَن كان أثبت قولًا وأحسن فعلًا؛ كان أعظم تثبيتًا[٢].

ويقول الله تعالى عن الفتن وعلاقتها بالإيمان: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[٣].

وعن حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- قال: كنَّا عند عمر- رضي الله عنه- فقال: أيُّكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال لهم عمر: لعلَّكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل، قال: تلك تُكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيُّكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج كموج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلتُ: أنا، قال: لله أبوك، قال حذيفة- رضي الله عنه-: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:" تُعرَضُ الفتنُ على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشربها نكتتْ فيه نكتة سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نكتتْ فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبَين: على أبيض مثل الصفا فلا تضرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا، لا يعرف معروفًا ولا يُنكِر مُنكَرًا إلَّا ما أُشرِب مِن هواه" رواه مسلم[٤].

---

(١) النساء ٦٦.

(٢) إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين (١/ ١٣٦). إعلام الموقعين عن ربِّ العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٣) العنكبوت ٢-٣.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨) برقم (١٤٤) كتاب الإيمان. باب بيان أنَّ الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنَّه يأرز بين المسجدين.



وعن خباب بن الأرت قال:" شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُردةً له في ظلِّ الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيُجعَل فيه، فيُجاء بالمنشار فيُوضَع على رأسه فيُشقُّ باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه. ويُمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصبٍ وما يصدُّه ذلك عن دينه، واللهِ ليُتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتَّى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلَّا اللهَ أو الذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون" رواه البخاري(١).

ومن الفتن العظيمة التي حذَّرنا منها النبي ﷺ (وقد زلَّتْ بكثيرٍ من الناس) فتنة النساء، فيقول:" مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِي النَّاسِ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاء" رواه مسلم(٢).

فاختلاطهن بالرجال من أعظم الفتن، فإنَّ تمكينَ النساءِ من الاختلاطِ بالرجالِ أصلُ كلِّ بليةٍ وشرٍّ، وهو أعظمُ أسبابِ نزولِ العقوباتِ العامَّة. قال رسول الله ﷺ:" فاتَّقوا الدنيا، واتَّقوا النساء؛ فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء" رواه مسلم(٣).

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من خطر الفتن فقال:" بادِروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يُصبِح الرجلُ مؤمنًا ويُمسِي كافرًا، أو يُمسِي مؤمنًا ويُصبِح كافرًا، يبيع أحدُهم دينَه بعَرَضٍ من الدنيا قليل" رواه مسلم(٤).

وعن أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَت:" اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً فَزِعًا يَقُولُ:" سُبْحَانَ اللَّهِ؛ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْفِتَنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ- يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ- لِكَيْ يُصَلِّينَ؟ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا، عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ" رواه البخاري(٥).

وعَنْ عَائِشَةَ- رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ:" اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَمِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ" رواه البخاري(٦).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٠١) برقم (٣٦١٢) كتاب المناقب. باب علامات النبوَّة في الإسلام.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٨) برقم (٢٧٤١) كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء، وأكثر أهل النَّار النِّساء، وبيان الفتنة بالنِّساء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٨) برقم (٢٧٤٢) كتاب الرقاق. باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء، وأكثر أهل النَّار النِّساء، وبيان الفتنة بالنِّساء.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٠) برقم (١١٨) كتاب الإيمان. باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهُر الفتن.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ٤٩) برقم (٧٠٦٩) كتاب الفتن. باب لا يأتي زمانٌ إلَّا الذي بعده شرٌّ منه.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٠) برقم (٦٣٧٥) كتاب الدعوات. باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة النَّار.



وفي عهد الإمام أحمد بن حنبل ظهر من ادَّعى أنَّ القرآنَ مخلوقٌ وهم من يُسمَّون بالمعتزلة، فعندما جاء الخليفة المأمون إلى الحكم بدأ المعتزلة يتسلَّقون إلى سدَّة الحكم وصاروا بطانة السوء للمأمون، وبرز منهم ابن أبي دؤاد الذي قام بتحريك الفتنة وأقنع بها المأمون، فصارت فكرًا رسميًّا مُعلَنًا من الدولة؛ إذ طلب المأمون أن يُنشَرَ في كلِّ مكانٍ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فرفض الإمام هذا الفكر المختلَّ، وأعلن رفضه له فتعرَّض للسجن وللضرب بالسياط حتَّى يرجع عن فتواه ويقرَّ هذا الفكر الشاذَّ، فرفض وتصدَّى لهم ولمن يناصرهم، حتى قضى على هذه الفكرة الغريبة على الدين حتَّى قيل:" لولا سياطٌ على ظهر ابن حنبل ما كان إمامَ أهلِ السُّنَّة".

ومن ثمرات الثبات على الحق في زمن الفتن أنَّ أهل الثبات في الدنيا هم أهل الثبات في الآخرة؛ قال تعالى:﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾(١).

أخي المسلم؛ لا تأمنْ على نفسك، ولا تركنْ إلى ما عندك من العلم والعبادة، بل اجتهدْ في العمل والافتقار إلى الله ودعائه بالثبات، وعليك أن تُكْثِرَ مِن قول: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾(٢). وقولِ:" يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ؛ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ".

والخلاصة: أنَّ التثبيت منهجٌ ربَّانيٌّ وطريقٌ عتيقٌ، فيه سار الأنبياء والرسل،والصِّدِّيقون والعلماء، والشُّهداء والصَّالحون، وهم قدوتنا وأسوتنا أمام دعاة التثبيط والتغريب، فعلينا أن نثقَ بنصر الله عزَّ وجلَّ، فمهما طال الليل واشتدَّ الظلام؛ فلا بُدَّ أن يبزغ الفجر، ويحلَّ النهار، ويعمَّ النور، فهذه عقيدة عميقة في قلوب أصحاب الدعوات؛ لأنَّهم استمعوا بقلوبهم إلى قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٣).

(١) إبراهيم ٢٧.
(٢) آل عمران ٨.
(٣) يوسف ١١٠.



ولله درَّ القائل[١]:

إليكَ أسـبابُ الثَّباتِ على التُّقَى مِنهَا لُزُومُ الصِّدْقِ كُـلَّ أَوَانِ

وَعَقيدةُ التَّوحيـدِ مِن ثَمراتِهَـا شرْحُ الصُّدورِ لسَائرِ الإنسانِ

وَمَجَالِـسُ العُلمَاءِ لَا تَزهَـدْ بِهَا وَلْتَصْحَبِ الْأَزْكَى مِنَ الْخِلَّانِ

وَالذِّكرُ لَا تترُكْهُ إِنْ رُمْتَ الهُدَى وَاحذَرْ مِنَ الْهُجْرَانِ لِلْقُرْآنِ

قَلِّبْ بِطَرفِكَ نَاظِرًا مَلَكُـوتَ مَنْ هُوَ لِلْخَلِيقَةِ مَظْهَرُ الْإِحْسَانِ

لَا تَأمَنَـنْ مَكْرَ الإِلَهِ فَإِنَّ ذَا صِفَةٌ لِأَهْلِ الزَّيْغِ وَالْكُفْرَانِ

وَسَلِ الثَّبَاتَ عَلَى الهُدَى مِنْ رَبِّنَا فَهُوَ الْمُجِيبُ وَغَافِرُ الْعِصْيَانِ

(١) لم أقف على قائلها.



٧ محرم

مواسم الطاعات

مِن فضْل الله تعالي على أمَّة محمَّدٍ ﷺ أن جعل لهم مواسم للطاعات، تتضاعف فيها الحسنات، وتُرفَع فيها الدرجات، ويُغفَر فيها كثير من المعاصي والسيِّئات، فالسعيد مَنِ اغتنم هذه الأوقات، وتعرَّض لهذه النفحات. وقد جعل الله في أيَّام الحياة مواسم خيرات، وفرصًا للتزوُّد من الطاعات، يرتقي بها المسلم أعلى الدرجات، ويفوز برحمةٍ من الله وفضْلٍ، وذلك لحِكَمٍ بليغة ومسالك تربوية سامية، وأجَلُّها أن يبقى العبد قويَّ الصلة بربِّه، هذه المواسم تزيد الإيمان وتُنمِّي التقوى، وترفع رصيدك في ميزان العمل الصالح، وتُزكِّي الروح، وتُهذِّب النَّفس، وتُقوِّي الهمَّة، وتُعوِّض النقص والخلل في العبادة، وتدفع السآمة والملل والفتور، وتفتح آفاقًا رحبة في ميدان التنافس، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾[1].

والمسلم عندما تدخل عليه مواسم الطاعة ينشط لها، ويفرح بها، يرجو ثواب ربِّه، ويأمل ما عنده من خيرٍ وبِرٍّ، وإنَّ من الفرح بفضْل الله ورحمته والاغتباط بنعمته؛ اغتنام مواسم الخيرات وأوقات الطاعات، وانتهاز فرصها، والمبادرة بالجدِّ فيها بصالح العمل، والتوبة إلى الله عمَّا مضى من النقص والخلل، والتنافُس في الطاعة، وتجديد النشاط في البِرِّ، وإزالة مظاهر السآمة والملل والفتور، والمسارعة والمسابقة إلى دار النعيم والحبور.

والناس في مواسم الطاعات على صنفين:

فأمَّا الصنف الأوَّل: فهو صنفٌ عَلِمَ الغاية التي من أجْلِها خُلِقَ، فعلم أنَّه لم يُخلَق ليأكل أو يشرب، أو يلهو ويلعب، أو يتمتَّع ويلبس، لكنَّه علم أنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقه لعبادته وطاعته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

فهؤلاء أقوامٌ امتلأتْ قلوبهم بمعرفة الله، وغمرتْ قلوبهم محبَّة الله وخشيته، ومراقبته وإجلاله، فَسَرَتِ المحبَّة في قلوبهم وأبدانهم، فلم يبقَ فيها عِرْقٌ ولا مفصلٌ إلَّا وقد دخله الحُبُّ، وقد أنساهم حُبُّه ذِكْرَ غيره، وأوحشهم أنسُهم به ممَّن سواه.

---

(١) المطففين ٢٦.

(٢) الذاريات ٥٦.

فبات الجسم على الفراش يتجافى عن مضجعه، والقلب قد آوى إلى مولاه وحبيبه فآواه، وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا، ذليلًا مُنكسِرًا من كلِّ جهاته، فما أشرفها من سجدة!!

وأمَّا الصنف الآخر: فصنفٌ غافلٌ لاهٍ ساهٍ، لا يعرف قيمة وقته ولا عمره، ولا يعرف حقَّ رازقه وخالقه، فتجده مُضيِّعًا لأوقاته في اللهو واللعب، تمرُّ عليه الأيَّام والسنون فلا ينتبه ولا يعتبر، ولا يشعر بقيمتها ولا بفضائلها، سبقت حظوظ نفسه وشهواته واجباته وحقوق ربِّه عليه، فخرج من دنياه بلا زاد، فيا حسرته على ما فرَّط في حقِّ نفسه وحقِّ ربِّه، ويا حسرات مَن ضيَّع وقته وعمره فيما لا ينفع.

قال ابن القيم:" فالوقتُ مُنقَضٍ بذاته، مُنصَرِمٌ بنفسه، فمَن غفلَ عن نفسه تصرَّمتْ أوقاته، وعظم فواته، واشتدَّتْ حسراته، فكيف حاله إذا علم عند تحقُّق الفوت مقدار ما أضاع، وطلب الرُّجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع، وطلب تناول الفائت، وكيف يُردُّ الأمس في اليوم الجديد، وأنَّى لهم التناوشُ من مكانٍ بعيدٍ، ومُنِع ممَّا يُحِبُّه ويرتضيه، وعلم أنَّ ما اقتناه ليس ممَّا ينبغي للعاقل أن يقتنيه، وحيل بينه وبين ما يشتهيه"(١).

فلا بُدَّ للمرء أن يستشعر في نفسه قصر أجله وقصر عمره، وإذا استقبل المرء مواسم الخير وهو قاصر الأمل يقول: لا أدري أعيش غدًا أم لا؛ فلا شكَّ أنَّ هذا من أعظم الأمور والأسباب المعينة على اغتنام مواسم الطاعات، والإنسان مهما طالت حياته وطال عمره لا بُدَّ له في النهاية أن يموت، وليس بين المرء وأمر الآخرة إلَّا قبض روحه، والموت لا يدع صغيرًا لصغره، ولا يدع كبيرًا لكبره، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢).

ولله درُّ كعب بن زهير- رضي الله عنه- حين قال:

كلُّ ابنِ أُنثى وإنْ طالتْ سلامتُه ... يومًا على آلةٍ حدباءَ محمولُ(٣)

ولما علِمَ الصالحون قصر العمر وحثَّ الحادي؛ سارعوا وطووا مراحل الليل مع النهار؛ اغتنامًا للأوقات، فأصغِ يا أخي سمعك لنداء ربِّك، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾(٤)، وبادِرْ قبل طيِّ

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٣/ ٥٠).

(٢) الأعراف ٣٤.

(٣) ديوان كعب بن زهير (ص ٤٩). ديوان كعب بن زهير، المؤلف: كعب بن زهير بن أبي سلمى، المزني، أبو المضرَّب شاعر مخضرم.

(٤) الذاريات ٥٠.



صحيفتك، واحسرْ عن رأسك قناع الغافلين، وشمِّر للسباق غدًا، فإنَّ الدنيا ميدان المتسابقين، واعلمْ أنَّنا خُلِقنا لنحيا في دارٍ غَرَسَ غراسَها الرحمنُ بيده.

معاشر المؤمنين؛ اعمروا أوقاتكم بالطاعة، واغتنموا مواسم الخير والبِرِّ بأربح البضاعة، وقِفوا عند الحدود، وأخلصوا للإله الحقِّ المعبود، وتذكَّروا أنَّ المؤمن لا يزيده عمره إلَّا خيرًا، فخيرُكم مَن طال عمرُه وحسُن عملُه، وليس للعمل انقطاع دون الموت؛ قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1].

وقد بيَّن الله- سبحانه وتعالى- أنَّ الاستعداد لمواسم الخير التي هي فُرصٌ عابرةٌ؛ دليلٌ على الصدق لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾[2]، مُبيِّنًا أنَّ لهذه الأُمَّة نفحاتٍ في أيَّام دهرها، يقول أنس بن مالك- رضي الله عنه-:" اطلبوا الخير دهركم كلَّه، وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله، فإنَّ لله- سبحانه وتعالى- نفحاتٍ من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده"[3].

وإنَّ من أعظم الخسارة أن تضيع من العبد مواسم الخيرات والطاعات دون أن يغتنمها، ويخرجَ منها فائزًا برحمات الله وبركاته، ولا تزيده هذه المواسم المباركة هدًى واستمساكًا بشريعة ربِّه- سبحانه- وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وإنَّ المسلم اللبيب ليغتنم أنفاسه، ويُقبِل على ربِّه ويُكثِر من الطاعات، يرجو رضا ربِّ الأرض والسماوات.

فاحرصْ- أخي المسلم- على اغتنام أوقاتك في الطاعة، وخذْ من قُوَّتك لضعفك، ومن شبابك لهرمك، ومن غناك لفقرك، ومن فراغك لشغلك، ومن صحَّتك لسقمك، فالسعيد مَن أشغل نفسه في الطاعة، والشقيُّ مَن أتبع نفسه هواها، ومَن تمنَّى على الله الأماني، والنفس إن لم تشغلْها بالطاعة شغلتْك بالمعصية، والوقت كالسيف إن لم تقطعْه قطعك.

---

(١) الحجر ٩٩.

(٢) محمد ٢١.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٧١) برقم (١٠٨٣). شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، حقَّقه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي– الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. والحديث حسَّنه الألباني مرفوعًا كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٥١١) وأوَّلُه:" افعلوا الخير دهركم ...".

والخلاصة: أنَّ التذكير بفضل اغتنام مواسم الطاعات يكون مِن خلال ثلاثة معالم مُهمَّة:

أوَّلها: بيان حكمة الله في تقلُّب الزمان، وتفضيل بعض الشهور والأيَّام.

ثانيها: بيان أهمِّيَّة الوقت ووجوب عمارته بالطاعة، والحذر من ضياعه فيما لا فائدة منه.

ثالثها: استحباب الاستعداد للطاعات قبل دخول زمانها.

فقد جعل الله لكلِّ موسمٍ وظيفة مِن وظائف طاعته: (صيام- حج- قيام- صدقة- أضحية.......) يقول النبي ﷺ:" إنَّ لِربِّكم عزَّ وجلَّ في أيَّامِ دهرِكم نَفَحاتٍ، فتعرَّضوا لها؛ لعَلَّ أحَدَكم أنْ تُصيبَه منها نَفحةٌ لَا يشقى بعدَها أبدًا "رواه الطبراني[(١)].

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٣/ ١٨٠) برقم (٢٨٥٦) وقال عقبه:" لا يُروَى هذا الحديث عن محمد بن مسلمة إلَّا بهذا الإسناد، تفرَّد به أحمد بن عبدة". المعجم الأوسط، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقِّق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين- القاهرة. والحديث حسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٥١٢).

٨ محرم

قصَّة نجاة موسى– عليه السلام– وقومه

بعد أن أظهر الله– عزَّ وجلَّ– حُجَّة موسى– عليه السلام– على فرعون واستمرَّ في دعوته إلى الله؛ قام فرعون وقومُه بالتآمُر على قتْل موسى، فذلك أقرب طريقٍ أمامهم، وأدنى السُّبُل لبقاء مُلْكهم بعد أن أعيتْهم الحيل، وسُدَّتْ أمامهم منافذ الخلاص. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[(١)]، وبينما هم في أخذٍ وردٍ في تآمُرهم على قتْل موسى؛ إذ وقعت المروءة والشجاعة في قلبِ رجلٍ مؤمنٍ من آل فرعون، أنار الله بصيرته، وكشف له سبيل الرشد والإيمان، فدافع عن موسى أشدَّ الدفاع، وقال لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[(٢)].

استمرَّ موسى في دعوته، لا يثنيه وعيد، ولا يخيفه تهديد، يدعو فرعون إلى الإيمان بربِّه، وأن يُطلِق معه بني إسرائيل، ولكنَّ فرعون الطاغية جمع قومه يريد أن يُبهرهم بالقُوَّة، ويُثبِّتهم على الكفر والمذلَّة، قال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[(٣)].

فأخذهم الله– عزَّ وجلَّ– بنقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات، فنضب النيل، وغاض ماؤه، وقصر عن إرواء أراضيهم، فنقصت ثمراتهم، وذَوى عود خيرهم، ثم أغرقهم الطوفان من مطر السماء، فأضرَّ بما بقي من الزرع والضرع، ثم زحف عليهم جرادٌ أَكَلَ الثمار والأزهار، واستولى عليهم القُمَّل فأقضَّ مضاجعهم وأقلق رقادهم، وابتلوا بالضفادع فنغَّصتْ عيشتهم، واحتشد جمعُها في طعامهم وشرابهم وبين ملابسهم، وسلَّط عليهم الرعاف– أي خروج الدم– من أنوفهم.

ثم محق الله أموالهم وأهلكها جزاء كفرهم وعنادهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

---

(١) غافر ٢٦.

(٢) غافر ٢٨.

(٣) الزخرف ٥١–٥٢.

يَعۡلَمُونَ ۝١٣١ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ۝١٣٥ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾[١].

فكان الله- عزَّ وجلَّ- يكشف العذاب والبلاء عن فرعون وقومه بعد أن يطلبوا من موسى أن يدعو الله ليكشف عنهم البلاء، وعندما يكشفه الله- عزَّ وجلَّ- يعودون لنقْضِ العهد حتَّى انتقم الله منهم بإغراقهم.

عزم موسى- بعد أن أوحى الله إليه- أن يخرج بالمؤمنين معه من مصر إلى الأرض المقدَّسة، وقد سهَّل الله إليها طريقهم، فساروا حثيثًا يدفعهم الخوف ويعصمهم الإيمان، حتَّى قطعوا رقعة اليابسة المصرية، وإذا بهم أمام بحرٍ لُجيٍّ يقف سدًّا منيعًا دون غايتهم، فساورهم القلق، واستولى عليهم الجزع، ودخل نفوسهم الروع والفزع؛ لأنَّ فرعون وقومه جدُّوا في السير في طلبهم، وأوشكوا أن يقتربوا منهم لأنَّهم- على حدِّ زعمه- عبيدٌ آبقون، وأتباعٌ مارقون، وقد جيَّش فرعونُ جيشه، وحشد خيله ورجاله، وسار وراء موسى ومن تبعه، فاقتربوا منهم، فهاج بنو إسرائيل، وتقطَّعت نفوسُهم همًّا وحسرة، وصاح بعضهم: يا كليم الله؛ أين تدبيرك؟! ها قد أدركَنا عدوُّنا؟! فالبحرُ أمامنا، والعدوُّ وراءنا، وليس لنا من الموت محيصٌ ولا مفرٌّ.

فقال موسى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾[٢].

فسار الأمل في نفوسهم، وأوحى الله- عزَّ وجلَّ- إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فإذا باثني عشر طريقًا بعدد بطون بني إسرائيل، فهيَّأ الله- عزَّ وجلَّ- لهم في البحر طريقًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿ فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾[٣].

---

(١) الأعراف ١٣٠- ١٣٦.

(٢) الشعراء ٦٢.

(٣) طه ٧٧.



فأصبح في البحر طريقٌ، وعلى كلِّ جانبٍ كالجبل العظيم من المياه، فدخلوا بأمْرٍ من الله حتَّى خرجوا من الجهة الأخرى سالمين، وإذا بفرعون وجنوده خلفهم يتأهَّبون ليسلكوا من البحر مسالك بني إسرائيل التي عبروا منها حتَّى يلحقوا بهم، فعاد الخوف والقلق إلى نفوس بني إسرائيل بعد أن أظلَّهم الأمن، وهنا همَّ موسى أن يدعو البحر ليعود إلى حاله حتَّى يحول بينهم وبين فرعون ويحجزهم حتَّى لا يبطشوا بهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فأوحى الله- عزَّ وجلَّ- إلى موسى أن يترك البحر ساكنًا على حاله؛ لأنَّ له سبحانه أمرًا آخر.

تلفَّتَ فرعون وجنوده، فإذا سُبُلُ البحر مُفتَّحةٌ أمامهم، فأخذهم الغرور والضلال، فأمر فرعونُ جنوده بعبور البحر، فلمَّا وصلوا إلى عرضه ودخلوا فيه جميعًا انطبق عليهم فأغرقهم أجمعين، فصاروا مثلًا للآخَرين.

ولما انطبق البحر على فرعون وقومه انطباقًا صاخبًا سأل بنو إسرائيل موسى- عليه السلام-: ما هذه الضوضاء؟! فقال لهم موسى: إنَّ الله أغرق فرعون ومَن معه وأهلكهم، وقد رسخ في عقولهم أنَّ فرعون لا يموت حسب وهمهم، ولكنَّ هذه قدرة الله- عزَّ وجلَّ-، عند ذلك أَمَرَ الله- عزَّ وجلَّ- البحر أن يُلقِي جُثَّة فرعون على ساحله ليراها بنو إسرائيل ويُصدِّقوا ويذهب خوفهم واعتقادهم أنَّه لا يموت، فنظر بنو إسرائيل إلى جُثَّته داهشين ذاهلين، ليكون آية لمن خلفه، آية ناطقة على قدرة الله ومعجزته، وذلك غاية الإنعام الذي تفضَّل به ربُّ العالمين على موسى وقومه. ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾(١). آمنَ فرعونُ الطاغية عندما رأى الموت وأنَّه لا نجاة له من الغرق.

والخلاصة: أنَّ الله- عزَّ وجلَّ- لا يقبل إيمان المرء حال اليأس والاحتضار؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾(٢).

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾(٣).

---

(١) يونس٩٠ -٩٢.

(٢) غافر ٨٥.

(٣) النساء ١٨.

٩ محرم

فضْل صيام يوم عاشوراء ويومٍ قبله

قال الإمام النووي- رحمه اللَّه-:" عاشوراء وتاسوعاء اسمان ممدودان، هذا هو المشهور في كتب اللغة، قال أصحابنا: هو اليوم العاشر من المحرَّم، وتاسوعاء هو التاسع منه، وبه قال جمهور العلماء. وهو ظاهر الأحاديث، ومقتضى إطلاق اللفظ، وهو المعروف عند أهل اللغة"(١).

وعن عبد اللَّه بن عبَّاس- رضي اللَّه عنهما- قال:" قدم رسول اللَّه ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، نجَّى اللَّه فيه موسى وبني إسرائيل من عدوِّهم، فصامه، فقال: أنا أحقُّ بموسى منكم فصامه، وأمر بصيامه" رواه البخاري(٢).

وفي رواية:" فصامه موسى شُكْرًا، فنحن نصومه" رواه مسلم(٣).

وفي رواية ثالثة:" فنحن نصومه تعظيمًا له" رواه مسلم(٤).

وعن الرُّبيِّع بنت معوِّذ- رضي اللَّه عنها- قالت:" أرسل رسول اللَّه ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة: مَن كان أصبح صائمًا فليُتِمَّ صومَه، ومن كان مُفطرًا فلْيُتِمَّ بقيَّة يومه، فكنَّا بعد ذلك نصومُه، ونُصوِّمُه صبياننا الصغار، ونذهب إلى المسجد، فنجعل لهم اللعبة من العُهن، فإذا بكى أحدهم أعطيناها إيَّاه، حتى يكون الإفطار" رواه مسلم(٥).

وفي رواية:" فإذا سألونا الطعام أعطيناهم اللعبة تلهيهم، حتَّى يُتِمُّوا صومهم" رواه مسلم(٦).

وعن سلمة بن الأكوع- رضي اللَّه عنه- أنَّ رسول اللَّه ﷺ أمر رجلًا من أسلم:" أن أذِّنْ في الناس: مَن كان أكل فلْيصُمْ بقيَّة يومه، ومن لم يكن أكل فلْيصُمْ، فإنَّ اليوم عاشوراء" رواه البخاري(٧).

---

(١) المجموع شرح المهذب (٦/ ٣٨٣) بتصرُّف. المجموع شرح المهذب ((مع تكملة السبكي والمطيعي))، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ) الناشر: دار الفكر، (طبعة كاملة معها تكملة السبكي والمطيعي).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٤) برقم (٢٠٠٤) كتاب الصوم. باب صيام يوم عاشوراء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٦) برقم (١١٣٠) كتاب الصيام. باب صوم يوم عاشوراء.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٥) برقم (١١٣٠) كتاب الصيام. باب صوم يوم عاشوراء.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٨) برقم (١١٣٦) كتاب الصيام. باب مَن أكل في عاشوراء فليكُفَّ بقيَّة يومه.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٩) برقم (١١٣٦) كتاب الصيام. باب مَن أكل في عاشوراء فليكُفَّ بقيَّة يومه.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٤) برقم (٢٠٠٧) كتاب الصوم. باب صيام يوم عاشوراء.



وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت:" كان عاشوراء يُصام قبل رمضان، فلمَّا نزل رمضان كان مَن شاء صام، ومَن شاء أفطر" رواه البخاري(١).

وفي رواية:" كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان ﷺ يصومه في الجاهلية، فلمَّا قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فُرِض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمَن شاء صامه، ومَن شاء تركه" رواه البخاري(٢).

وعن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:" لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصومَنَّ التاسع" رواه مسلم(٣).

وفي رواية قال:" حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء، وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله؛ إنَّه يومٌ تُعظِّمه اليهود والنصارى؟ فقال رسول الله ﷺ: فإذا كان العام القابل- إن شاء الله- صُمنا اليوم التاسع، قال: فلم يأت العام المقبل، حتى تُوفِّي رسول الله ﷺ" رواه مسلم(٤).

وروى مسلم في صحيحه من حديث ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنَّه سُئِلَ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ؟ فَقَالَ:" مَا عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَامَ يَوْمًا يَطْلُبُ فَضْلَهُ عَلَى الْأَيَّامِ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ، وَلَا شَهْرًا إِلَّا هَذَا الشَّهْرَ. يَعْنِي رَمَضَانَ"(٥).

وعن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ:" صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا فيه اليهود، صوموا قبله يومًا، أو بعده يومًا " أخرجه أحمد(٦).

قال الإمام ابن باز- رحمه الله-:" صيام يوم عاشوراء سُنَّةٌ، يُستحَبُّ صيامُه؛ صامه ﷺ، وصامه الصحابة، وصامه موسى قبل ذلك شُكرًا لله- عزَّ وجلَّ-؛ ولأنَّه يومٌ نجَّى الله فيه موسى وقومه،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٤) برقم (٤٥٠٢) كتاب تفسير القرآن. باب يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيامُ كما كُتب على الذين مِن قبلكم لعلَّكم تتَّقون.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٤) برقم (٢٠٠٢) كتاب الصوم. باب صيام يوم عاشوراء.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٨) برقم (١١٣٤) كتاب الصيام. باب أيِّ يومٍ يُصام في عاشوراء.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٧) برقم (١١٣٤) كتاب الصيام. باب أيِّ يومٍ يُصام في عاشوراء.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٧) برقم (١١٣٢) كتاب الصيام. باب مَن أَكَلَ في عاشوراء فليكُفَّ بقيَّة يومه.

(٦) رواه أحمد في مسنده (٤/٥٢) برقم (٢١٥٤). والحديث ضعَّفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٥١٢). ضعيف الجامع الصغير وزيادته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: المجدَّدة والمزيدة والمنقَّحة.



وأهلك فرعون وقومه، فصامه موسى وبنو إسرائيل شُكْرًا لله- عزَّ وجلَّ-، ثم صامه النبي ﷺ شُكْرًا لله- عزَّ وجلَّ- وتأسيًّا بنبي الله موسى، وكان أهل الجاهلية يصومونه أيضًا، وأكَّده النبي ﷺ على الأُمَّة، فلمَّا فرض الله رمضان قال ﷺ:" مَن شاء صامه، ومَن شاء تركه" رواه البخاري ومسلم واللفظ له[١]. وأخبر ﷺ أنَّ صيامه يُكفِّر اللهُ به السنةَ التي قبله. والأفضل أن يُصام قبله يومٌ أو بعده يومٌ خلافًا لليهود؛ لما ورد عنه ﷺ:" صوموا يومًا قبله أو يومًا بعده" رواه أحمد[٢]، وفي لفظ:" صوموا يومًا قبله ويومًا بعده"[٣] فإذا صام يومًا قبله أو بعده يومًا، أو صام اليوم الذي قبله واليوم الذي بعده، أي صام ثلاثة أيام؛ فكلُّه طيِّبٌ، وفيه مخالَفةٌ لأعداء الله اليهود"[٤].

وقال ابن حجر:" ويُؤخَذ من مجموع الأحاديث أنَّه كان واجبًا لثبوت الأمر بصومه، ثم تأكَّد الأمر بذلك، ثم زيادة التأكيد بالنداء العام، ثم زيادته بأمْر مَن أكلَ بالإمساك، ثم زيادته بأمْر الأمَّهات أن لا يرضعن فيه الأطفال، وبقول ابن مسعود الثابت في مسلم:" لما فُرِض رمضانُ ترك عاشوراء"[٥]، مع العلم بأنَّه ما ترك استحبابه، بل هو باقٍ، فدلَّ على أنَّ المتروك وجوبه"[٦].

---

(١) تقدَّم قريبًا تخريجه عند البخاري. ورواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٢) برقم (١١٢٦) كتاب الصيام. باب صوم يوم عاشوراء.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥٢/٤) برقم (٢١٥٤) برقم (٢١٥٤) بلفظ:" صوموا قبله يومًا، أو بعده يومًا"، وحسَّنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٦٧٥).

(٣) رواه البزار في مسنده= البحر الزخار (١١/ ٣٩٩) برقم (٥٢٣٨). والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٨٤) برقم (٨٤٨٠). مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، المحقِّق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقَّق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقَّق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقَّق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م). السنن الكبرى، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليٍّ البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية (الدكتور/ عبد السند حسن يمامة)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م. والحديث ذكره الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٥١٢).

(٤) مجموع فتاوى ابن باز (١٥/ ٤٠١).

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٩٤) برقم (١١٢٧) كتاب الصيام. باب صوم يوم عاشوراء، ولفظه: دخل الأشعث بن قيس على ابن مسعود وهو يأكل يوم عاشوراء فقال: يا أبا عبد الرحمن؛ إنَّ اليوم يوم عاشوراء فقال: «قد كان يُصام قبل أن ينزل رمضان، فلمَّا نزل رمضان تُرِكَ، فإن كنتَ مفطرًا فاطعمْ».

(٦) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٢٤٧).

وقد أَنْشَدَنَا الْحَافِظُ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ الْحُسَيْنِ لِنَفْسِهِ:

اسْـتَفْتِحِ الْعَـامَ بِالصِّـيَامِ ... لِلَّهِ فِي شَــــهْرِ الْحَــــرَامِ
وَعَاشِرَ الْمُحَرَّمِ صُمْ يُكَفِّرْ ... عَنْـكَ ذُنُـوبًا مَضَـتْ لِعَـامِ
وَارْجِعْ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ ... فَإِنَّـــــهُ غَـــــافِرُ الآثامِ
واغتنمِ الْعُمْرَ فَإِنَّهُ ضَيْفٌ ... لَا مَطْمَـعَ مِنْـهُ فِي الْمَقَـامِ
وَلَا تَكُـــــنْ آيِسًا قَنُوطًا ... فَالْعَفْـوُ مِنْ شِيمَةِ الْكِرَامِ[١]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وتكفير الطهارة، والصلاة، وصيام رمضان، وعرفة، وعاشوراء للصغائر فقط"[٢].

والخلاصة: ما ذكره ابن القيم أنَّ صيام عاشوراء على ثلاث مراتب:

أكملها: أن يُصام قبله يومٌ وبعده يومٌ.

ويليها: أن يُصام التاسع والعاشر.

ويليها: إفراد العاشر وحده بالصوم[٣].

قلتُ: أمَّا الأُولى وهي أن يُصام قبله يومٌ وبعده يومٌ؛ فلم يثبت بها حديثٌ عن النبي ﷺ، وإنَّما صحَّ ذلك عن ابن عبَّاس موقوفًا عليه.

لكن له أن يفعل ذلك لأحد أمرين:

إمَّا أن يشكَّ في دخول الشهر؛ فيصوم ثلاثة أيَّام احتياطًا، فقد رُوي عن الإمام أحمد أنَّه قال:" فإن اشتبه عليه أوَّل الشهر صام ثلاثة أيَّام، وإنَّما يفعل ذلك ليتيقَّن صوم التاسع والعاشر"[٤].

---

(١) يُنظَر: الأمالي المطلقة (ص ٢٣). الأمالي المطلقة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢ هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد بن إسماعيل السلفي، الناشر: المكتب الإسلامي– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٣٤٢). الفتاوى الكبرى، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، الناشر : دار المعرفة– بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٧٢). زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

(٤) ذكره عن الإمام أحمد ابن قدامة في المغني (٤/ ٤٤١). المغني، المؤلف: أبو محمد موفَّق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠ هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، ط: عالم الكتب، الرياض- السعودية، الطبعة: الثالثة، سنة النشر: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

وقد ذكر ابن رجب في "اللطائف" أنَّ ممَّن رُوِيَ عنه فِعْلُ ذلك أبو إسحاق وابن سيرين، وأنَّهما إنَّما يفعلان ذلك عند الاختلاف في هلال الشهر احتياطًا[1].

الحال الثانية: أن ينوي بصيامها مع صيام يوم عاشوراء صيام ثلاثة أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ، لما ثبت في "الصحيحين" عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:" صوم ثلاثة أيَّام من كلِّ شهرٍ صومُ الدهر كلِّه"[2].

---

(١) يُنظَر: لطائف المعارف لابن رجب (ص ٥٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٠) برقم (١٩٧٩) كتاب الصوم. باب صوم داود عليه السلام من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ:" لا صام مَن صام الدهر، صوم ثلاثة أيَّام صوم الدهر كلِّه"؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٢) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرَّر به أو فوَّت حقًّا من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ:" فصمْ وأفطرْ، ونمْ وقمْ، وصمْ من الشهر ثلاثة أيَّام، فإنَّ الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر".



١٠ محرم

فضْل صوم النوافل

من رحمةِ اللهِ- جلَّ وعلا- بعبادهِ أن شرَع لهم من الأعمالِ ما يُعينُهم بها على الوصولِ لتلك المحبَّةِ، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" رواه البخاري(١).

فمَن أدَّى الفرائضَ، وأكثرَ من نوافلِ العباداتِ؛ أحبَّه اللهُ، وقرَّبه إليه، ووفَّقه لطاعتِه، وأجابَ دعاءَه، وحفظه في حواسِّه، وأعانَه على أمْرِ دينِه ودنياهُ وآخرتِه.

ولقد جعل اللهُ مع كلِّ فريضةٍ افترضَها على عبادِه؛ نافلةً من جِنسِها لتكونَ جابرةً لما يحصلُ فيها من النقصِ والخللِ، وهذا من رحمةِ اللهِ بعباده لعلْمهِ بضعفهِم، وما يعتريهم من النقصِ، وإنَّ من أفضلِ نوافلِ العباداتِ وأحبِّها إلى الله عبادةَ الصيامِ، قال ﷺ:" مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَّدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا" رواه البخاري(٢).

وصيامُ التطوُّعِ من أعظمِ شُعَبِ الإيمانِ، وأجَلِّ خصالِ التعبُّدِ، وقد تضافرتِ النصوصُ الشرعيَّةُ في الحثِّ عليه، ومدْحِ أهلِه، ووَعَدَهم بالأجرِ العظيمِ والثوابِ الجزيلِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢) كتاب الرقاق. باب التواضع.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٢٦) برقم (٢٨٤٠) كتاب الجهاد والسير. باب فضْل الصوم في سبيل الله.

(٣) الأحزاب ٣٥.

قال ابن كثير في تفسيره: والصائمين والصائمات: في الحديث الذي رواه ابن ماجه:" الصوم زكاة البدن"[١] أي: تُزكّيه وتُطهّره وتُنقّيه من الأخلاط الرديئة طبعًا وشرعًا، قال سعيد بن جُبير: مَن صام رمضان وثلاثة أيَّام من كلِّ شهرٍ دخل في قوله: والصائمين والصائمات [٢].

وقال- جلَّ وعلا- في كتابه مُذَكِّرًا عبادَه بما ينالُهم من العيشةِ الهنيةِ عند دخولِهم الجنَّةِ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾[٣]، قال مجاهدُ- رحمه الله-: نزلت هذه الآيةُ في الصائمين[٤].

وهذا الصيامُ ينقسمُ إلى: تطوُّعٍ مُطلَقٍ: وهو أن يتطَّوعَ المسلمُ بصيامِ أيِّ يومٍ أرادَ من أيامِ السنةِ، إلَّا ما ورد النهيُ عنه كيومَي العيدَينِ، وأيَّامِ التشريقِ، وصيامِ يومِ الجمعةِ لمن قصد صومَه وحده.

ومِن صورِ التطُّوعِ المطلَقِ صيامُ يومٍ وفِطْرُ يومٍ، قال ﷺ:" أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا" رواه مسلم[٥].

وتطوُّع مُقيَّدُ: وهو ينقسمُ إلى قسمين:

الأوَّلُ: المقيَّدُ بحالِ الشخصِ، كالشابِّ الذي لم يستطع الزواجَ، كما قال ﷺ:"يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ؛ مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ" رواه البخاري ومسلم[٦]. فإنَّ هذا الصيامَ يتأكَّدُ في حقِّهِ ما دام عزبًا.

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٥٥٥) برقم (١٧٤٥) كتاب الصيام. باب في الصوم زكاة الجسد بلفظ:" لكلِّ شيءٍ زكاة، وزكاة الجسد الصوم". والحديث ذكره ابن الجوزي وقال: "هذا حديث لا يصح". قال ابن حبان:" لا يجوز الاحتجاج بحماد بن الوليد، كان يسرق الحديث ويلزق بالثقات ما ليس من حديثهم، وقال ابن عدي:" عامَّة ما يرويه لا يتابع عليه" العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (٢/ ٤٩). العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقِّق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م. وكذا ضعَّفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (٣/ ٤٩٧). سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، دار النشر: دار المعارف، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٤١٩).

(٣) الحاقة ٢٤.

(٤) ذكره الشيخ ابن عثيمين في مجالس شهر رمضان (ص ٨٠). مجالس شهر رمضان، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٠) برقم (١١٣١) كتاب التهجُّد. باب مَن نام عند السحر؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٦) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام. باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرَّر به.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٣) برقم (٥٠٦٦) كتاب النكاح. باب مَن لم يستطع الباءة؛ ومسلم في صحيحه (٢/ ١٠١٨) برقم (١٤٠٠) كتاب النكاح. باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه.



وأمَّا الثاني: فهو المقيَّدُ بوقتٍ مُعيَّنٍ، ومن ذلك: صيامُ الاثنينِ والخميسِ، فعن عَائِشَةَ -رضي الله عنها- قَالَت:" إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَحَرَّى صِيَامَ الاثْنَيْنِ وَالْخَمِيس" رواه ابن ماجه[١].

وقد سُئل ﷺ عن صيام يوم الاثنين ويوم الخميس فقال:" ذَانِكَ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الأَعْمَالُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ" أخرجه النسائي[٢].

ومن ذلك أيضًا: استحبابُ صيامِ ثلاثةِ أيَّامٍ من كلِّ شهرٍ: فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال:" أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ؛ صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ" رواه البخاري[٣].

والمستحَبُّ فيها صيامُ أيَّامِ البيضِ، فعن أَبِي ذَرٍّ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِذَا صُمْتَ شَيْئًا مِنْ الشَّهْرِ؛ فَصُمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ" أخرجه النسائي[٤].

ومن ذلك أيضًا: صيامُ أيَّامٍ مُعيَّنةٍ مخصوصةٍ، ومنها:

- يومُ عاشوراء: وهو اليومُ العاشرُ من شهرِ مُحرَّمٍ، فقد قال ﷺ:" صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ "رواه مسلم[٥]. ويُسنُّ أن يصوم يومًا قبله أو يومًا بعده لمخالَفة اليهود.
- يومُ عرفةَ: وهو اليومُ التاسعُ من ذي الحجَّة، وهو مُستحَبٌّ لمنْ لم يكن واقفًا بعرفة، قال ﷺ:" صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ " رواه مسلم[٦].

---

(١) رواه ابن ماجه في سُننه (١/ ٥٥٣) برقم (١٧٣٩) كتاب الصيام. باب صيام يوم الاثنين والخميس. والحديث صحَّحه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٤/ ١٠٥). إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى : ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٧) برقم (٢٦٧٩) كتاب الصيام. باب صوم النبي ﷺ بأبي هو وأمي، وذكر اختلاف الناقلين في ذلك. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٦/ ٢). صحيح وضعيف سنن النسائي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٨) برقم (١١٧٨) كتاب التهجُّد. باب صلاة الضُّحى في الحضر.

(٤) رواه النسائي في سننه (٤/ ٢٢٢) برقم (٢٤٢٤) كتاب الصيام، ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر في صيام ثلاثة أيَّام من الشهر. المجتبى من السنن= السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي. الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣ هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية— حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦ م. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٦/ ٦٨).

(٥) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٨) برقم (١١٦٢) كتاب الصيام. باب استحباب صيام ثلاثة أيَّام من كلِّ شهرٍ، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس.

(٦) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٨) برقم (١١٦٢) كتاب الصيام. باب استحباب صيام ثلاثة أيَّام من كلِّ شهرٍ، وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس.

أمَّا ما يُسنُّ صومه في بعض شهور العام، فمنها:

- صيامُ ستَّةِ أيَّامٍ من شوال: قال ﷺ:" مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ" رواه مسلم(١).
- صيامُ أيَّامٍ من شهرِ اللهِ المحرَّم: فقد سُئِلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الصَّلَاةِ أفضَلُ بعد المكتوبةِ؟ وأيُّ الصِّيامِ أفضَلُ بعد شَهرِ رمضانَ؟ فقال: أفضَلُ الصَّلَاةِ بعدَ الصَّلَاةِ المكتوبةِ الصَّلَاةُ في جَوفِ اللَّيلِ. وأفضَلُ الصِّيامِ بعدَ شَهرِ رَمَضانَ صِيامُ شَهرِ اللهِ المحَرَّم" رواه مسلم(٢).
- صيامُ أغلبِ أيَّامِ شهرِ شعبان: فقد سُئلتْ عائشةُ- رَضِيَ اللهُ عنها- عن صيامِ رَسولِ الله ﷺ، فقالت:" كان يصومُ حتى نقولَ: قد صام، ويُفطِرُ حتى نقولَ: قد أفطَرَ، ولم أرَهُ صائمًا من شَهرٍ قَطُّ أكثَرَ مِن صيامِه مِن شَعبانَ؛ كان يصومُ شَعبانَ كُلَّه، كان يصومُ شَعبانَ إلَّا قليلًا" رواه مسلم(٣).

والخلاصة: أنَّ صيام النوافل من أحبِّ الطاعات إلى الله تعالى، وله أوقاتٌ لا تُنسَى، وفضائلُ لا تُحصَى:

اللهُ يَجْــــزِي الصَّائِمينَ لِأَنَّهُـــمْ ... مِنْ أَجْلِهِ سَخِرُوا بِكُلِّ صِعَابِ

لَا يَدْخُلُ الرَّيَّانَ إِلَّا صَــــــائِمٌ ... أَكْرِمْ بِبَابِ الصَّومِ فِي الأَبْوَابِ

وَوَقَاهُمُ المولَى بِحَرِّ نَهَـــــــارِهِمْ ... رِيحَ السَّمُومِ وَشَرَّ كُلِّ عَذَابِ

وَسُقُوا رَحِيقَ السَّلْـسَبِيلِ مِزَاجُهُ ... مِـنْ زَنْجَبِيـلٍ فَـاقَ كُـلَّ شَـرَابِ

هَذَا جَــزَاءُ الصَّائِمِينَ لِرَبِّهِـــــم ... سَـعِدُوا بِخَيرِ كَرَامَةٍ وَجَنَابِ(٤)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢٢) برقم (١١٦٤) كتاب الصيام. باب استحباب صوم ستَّة أيَّام من شوال.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٢٢) برقم (١١٦٣) كتاب الصيام. باب فضْل صوم المحرَّم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١١) برقم (١١٥٦) كتاب الصيام. باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان، واستحباب أن لا يخلي شهرًا عن صوم.

(٤) أبيات لخير الدين وانلي كما في أرشيف ملتقى أهل الحديث- ٣ (٨٣/ ٤٥٧).



١١ محرم

الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات

ابتدأ الله سبحانه وتعالى الحديث عن صفات المسلمين المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[١]، فذكر هذه الأوصاف التي تنتظم مراتب أهل الإيمان، ثم ختم ذلك كلَّه بقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، ثم ذكر جزاءهم: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

جاء عن ابن عبَّاسٍ- رضي الله عنهما- قال:" يريد في أدبار الصَّلوات، وغُدُوًّا وعشيًّا، وفي المضاجع، وكلَّما استيقظ من نومه، وكلَّما غدا وراح من منزله؛ ذَكَرَ اللهَ".

وجاء عن مجاهدٍ- رحمه الله-:" لا يكون العبدُ من الذَّاكرين الله كثيرًا والذَّاكرات حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا ومُضطجعًا"[٢]؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[٣].

وجاء أيضًا في حديث أبي سعيدٍ الخدري- رضي الله عنه-: أنَّ النبي ﷺ قال:" إذا أيقظ الرجلُ أهلَه من الليل فصلَّيا أو صلَّى ركعتين جميعًا كُتِبَا في الذَّاكرين والذَّاكرات" رواه أبو داود[٤].

وعن ابن عبَّاسٍ- رضي الله عنهما- أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[٥]، أنَّه قال: "إنَّ الله لم يفرض على عباده فريضةً إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلَها

---

(١) الأحزاب ٣٥.

(٢) يُنظَر: التفسير الوسيط للواحدي (٣/ ٤٧١). الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدَّمه وقرَّظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٣) النساء ١٠٣.

(٤) رواه أبو داود في سننه (٢/ ٣٣) برقم (١٣٠٩) أبواب قيام الليل. باب قيام الليل. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣/ ٣٠٩). صحيح وضعيف سنن أبي داود، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

(٥) الأحزاب ٤١.

في حال عذرٍ، غيرَ الذِّكْر؛ فإنَّ الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلَّا مغلوبًا على تركه، فقال: ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾(١)، بالليل والنَّهار، وفي البَرِّ والبحر، وفي السَّفر والحضر، والغنى والفقر، والسَّقم والصحَّة، والسِّرِّ والعلانية، وعلى كلِّ حالٍ، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(٢)، فإذا فعلتُم ذلك صلَّى عليكم هو وملائكته"(٣).

يقول الإمام ابن تيمية – رحمه الله-:" وأقلُّ ذلك أن يُلازِم العبدُ الأذكارَ المأثورة عن مُعلِّم الخير وإمام المتَّقين ﷺ؛ كالأذكار المؤقَّتة في أول النَّهار وآخره، وعند أخْذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصَّلوات، والأذكار المقيَّدة مثل: ما يُقال عند الأكل والشُّرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد، إلى غير ذلك"، إلى أن يقول: "ثم مُلازمة الذكر مُطلقًا، وأفضله: لا إله إلَّا الله"(٤)، إلى آخر ما قال من أنَّ بعضَ الذكر قد يكون في بعض الأحوال مطلوبًا: كسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، فقد يكون ذلك في بعض المواضع مُقدَّمًا على غيره.

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي- رحمه الله-:" وأقلُّ ذلك أن يُلازِم الإنسانُ أورادَ الصباح والمساء، وأدبار الصَّلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب"(٥).

ثم إنَّ الله- تبارك وتعالى- أمر بذكره في أعظم المواطن: حال الالتحام، ومُلاقاة الأعداء: فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٦).

وخرج معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنهما- ذات يوم على حَلَقة في المسجد، فقال:" ما أجلَسَكم؟ قالوا: جلَسْنا نذكرُ الله، قال: آللهُ ما أجلسكم إلَّا ذاك؟ قالوا: ما أجلَسَنا إلَّا ذاك، قال: أمَا إنِّي لم أستحلِفْكم تهمةً لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي منه ﷺ أقلَّ عنه حديثًا منِّي، إنَّ رسول الله ﷺ خرج على حلقةٍ من أصحابه، فقال: ما أجلَسَكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا

---

(١) النساء ١٠٣.

(٢) الأحزاب ٤٢.

(٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٠). مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦ هـ/١٩٩٥ م.

(٥) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٦٧).

(٦) الأنفال ٤٥.



للإسلام ومنَّ به علينا، قال: آللهُ ما أجلَسَكم إلَّا ذاك؟ قالوا: واللهِ ما أجلسنا إلَّا ذاك، قال: أمَا إنِّي لم أستحلِفْكم تهمةً لكم، ولكنَّه أتاني جبريل، فأخبرني أنَّ الله يُباهي بكم الملائكة" رواه مسلم[١].

بل إنَّ النبي ﷺ لما سأله رجلٌ وأخبره أنَّ شرائع الإسلام قد كثُرتْ عليه، قال: فأخبرْني بشيءٍ أتشبَّثُ به، فقال له النبي ﷺ:" لا يزال لسانُك رطبًا مِن ذكْر الله" رواه ابن ماجه[٢].

وقال ﷺ أيضًا:" سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال:" الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات" رواه مسلم[٣].

وفي الحديث الطويل عن أبي موسى- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: أنَّ الله تعالى أمر يحيى بن زكريا- عليهما السلام- بخمس كلمات؛ أن يعمل بهنَّ ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ، منها:" وآمروكم أن تذكروا الله تعالى، فإنَّ مثل ذلك كمثل الرجل خرج العدوُّ في أثره سراعًا، حتَّى إذا أتى على حصنٍ حصينٍ فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يُحرِز نفسه من الشيطان إلَّا بذكْر الله" رواه الترمذي[٤].

وصحَّ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربِّ العزَّة سبحانه وتعالى أنَّه قال:" أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم، وإن تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقرَّبتُ إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إليَّ ذراعًا تقرَّبتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولة" رواه البخاري[٥].

حقًّا؛ مَن ذَكَرَ اللهَ يذكره، لقوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾[٦].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٥) برقم (٢٧٠١) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضْل الاجتماع على تلاوة القرآن.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٤٦) برقم (٣٧٩٣) كتاب الأدب. باب فضْل الذكْر. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٨/ ٢٩٣). صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسُّنة بالإسكندرية.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٢) برقم (٢٦٧٦) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب الحث على ذكر الله تعالى.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ١٤٩) برقم (٢٨٦٣) أبواب الأمثال. باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢١) برقم (٧٤٠٥) كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى: {ويُحَذِّركم الله نفسه}؛ ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦١) برقم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب الحث على ذكْر الله تعالى.

(٦) البقرة ١٥٢.



ومَن لم يذكر الله وأعرض عن ذكره فقد توعَّده الله سبحانه وتعالى بالمعيشة الضنك في الدنيا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[١] .

وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال: ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأرضاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، ومن أن تلقوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذِكْرُ الله" رواه ابن ماجه[٢].

وقال ابن مسعود- رضي الله عنه- في قول الله تعالى:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٣]، فقال: أن يُطاع فلا يُعصَى، وأن يُذكر فلا يُنسَى، وأن يُشكَر فلا يُكفَر[٤].

والخلاصة: كما قال الإمام ابن القيم- رحمه الله-: ولا ريب أنَّ أبدان الغافلين قبورٌ لقلوبهم، وقلوبهم فيها كالأموات في القبور، كما قيل:

فنسيانُ ذِكْرِ اللهِ موتُ قُلوبِهم ... وأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ مِن جسومِهم ... وليس لهم حتَّى النشورِ نشورُ[٥]

---

(١) طه ١٢٤.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٤٥) برقم (٣٧٩٠) كتاب الأدب. باب فضْل الذكر. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥١٣).

(٣) آل عمران ١٠٢.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٦) برقم (٣٤٥٥٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٣٨). الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥ هـ)، المحقِّق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد– الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة- بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٥) يُنظَر: مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ٤٠٢).



١٢ محرم

الكاظمون الغيظ

وَصَفَ الله تبارك وتعالى المتقين الذين يستحقُّون الجنَّة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١)؛ فجعل مِن صفاتهم أنَّهم يكظمون الغيظ، ويعفون عمَّن ظلمهم.

قال العلَّامة الشنقيطي- رحمه الله تعالى-:" وقد دلَّت هذه الآية على أنَّ كظْم الغيط، والعفو عن الناس؛ من صفات أهل الجنَّة، وكفى بذلك حثًّا على ذلك، ودلَّت أيضًا: على أنَّ ذلك من الإحسان الذي يُحبُّ الله المتَّصفين به"(٢).

وفي كتب اللغة: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ الغَيْظ: الغَضَب، وقيل: الغَيْظ غَضَبٌ كامِنٌ للعاجز، وقيل: هو أشدُّ من الغَضَب، وقيل: هو سَوْرَته وأوَّله. وغِظْتُ فلانًا، أَغِيظُه غَيْظًا. وقد غَاظَه فاغْتَاظ. وغَيَّظه فتَغَيَّظ، وهو مَغِيظ. وقال الأصفهاني: الغَيْظ: أشدُّ الغَضَب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فَوَرَان دم قلبه(٣).

وعليه فمعنى الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ أَيِ: الْجَارِعِينَ الْغَيْظَ عِنْدَ امْتِلَاءِ نُفُوسِهِمْ مِنْهُ، وَالْكَظْمُ: حَبْسُ الشَّيْءِ عِنْدَ امْتِلَائِهِ، وَكَظْمُ الْغَيْظِ أَنْ يَمْتَلِئَ غَيْظًا فَيَرُدَّهُ فِي جَوْفِهِ وَلَا يُظْهِرَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾(٤).

---

(١) آل عمران ١٣٣-١٣٤.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥/ ٤٨٧). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت– لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٣) يُنظَر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ١١٧٦)، تاج العروس (٢٠/ ٢٤٨). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزَّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقَّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقِّق: مجموعة من المحقِّقين، الناشر: دار الهداية.

(٤) غافر ١٨.



وقال الإمام الطبري- رحمه الله- في قوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ يعني:" والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، يقال منه:" كظم فلان غيظه" إذا تجرَّعه، فحفظ نفسه من أن تُمضي ما هي قادرةٌ على إمضائه باستمكانها ممَّن غاظها، وانتصارها ممَّن ظلمها، وأصل ذلك مِن كظْم القِربة، يُقال منه:" كظمتَ القِربة" إذا ملأتَها ماء، و" فلان كظيم ومكظوم" إذا كان ممتلئًا غمًّا وحُزنًا؛ ومنه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾[١]، يعني: ممتلئ من الحزن، ومنه قيل لمجاري المياه:" الكظائم" لامتلائها بالماء؛ ومنه قيل:" أخذتُ بكظمه" يعني: بمجاري نفسه"[٢].

ذكر الإمام القرطبي- رحمه الله- عن ميمون بن مهران- رحمه الله-:" أنَّ جاريته جاءت ذات يومٍ بصحفةٍ فيها مرقة حارَّة، وعنده أضياف، فعثرتْ، فصبَّت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي استعمل قول الله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ}، قال لها: قد فعلتُ، فقالت: اعمل بما بعده: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}، فقال: قد عفوتُ عنكِ، فقالت الجارية: {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، قال ميمون: قد أحسنتُ إليكِ، فأنتِ حُرَّةٌ لوجه الله تعالى"[٣].

عن أبي رزين قال: جاء رجلٌ إلى الفضيل بن بَزْوَان، فقال: إنَّ فلانًا يقع فيك. فقال: لأغيظنَّ مَن أمرَه، يغفر الله لي وله. قيل: مَن أمَرَه؟ قال: الشَّيطان[٤].

وعن أنس- رضي الله عنه- أنَّ النَّبي ﷺ مرَّ بقومٍ يَصْطَرِعون، فقال:" ما هذا؟ فقالوا: يا رسول الله؛ فلانٌ الصَّريع، لا ينتدِب له أحدٌ إلَّا صَرَعه، فقال رسول الله ﷺ: ألَا أدلُّكم على مَن هو أشدُّ منه؟ رجلٌ ظَلَمَهُ رجلٌ، فكَظَم غَيْظَه فغلبه، وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه" أخرجه البزار وصحَّحه الألباني[٥].

---

(١) يوسف ٨٤.

(٢) تفسير الطبري= جامع البيان (٦/ ٥٧). تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٧).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٢٣٤). الزهد والرقائق لابن المبارك (يليه «مَا رَوَاهُ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ فِي نُسْخَتِهِ زَائِدًا عَلَى مَا رَوَاهُ الْمَرْوَزِيُّ عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ»)، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١ هـ)، المحقّق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت.

(٥) رواه البزار في مسنده= البحر الزخار (١٣/ ٤٧٥). وصحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٨٦٩).



وعن فضْل كظْم الغيظ في الآخرة يقول رسول الله ﷺ:" مَن كَظَمَ غيظًا وهو قادرٌ على أن يُنفذه؛ دعاه الله عزَّ وجلَّ على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتَّى يُخيِّرَه مِن أيِّ الحور العين شاء" رواه أبو داود(١).

وعن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢). "يقول ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-: مَن تَرَكَ القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو؛ ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، أي إنَّ الله يأجُره على ذلك، قال مقاتل: فكان العفو من الأعمال الصالحة(٣).

قال السعدي:" ذَكَرَ اللهُ في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنَّها على ثلاث مراتب: عدْلٌ، وفضْلٌ، وظُلْمٌ. فمرتبة العدل: جزاء السَّيِّئة بسيِّئةٍ مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكلُّ جارحةٍ بالجارحة المماثلة لها، والمال يُضمَن بمثله. ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(٤)، يجزيه أجرًا عظيمًا، وثوابًا كثيرًا، وَشَرَطَ اللهُ في العفوِ الإصلاحَ فيه؛ ليدلَّ ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعيَّة تقتضي عقوبته؛ فإنَّه في هذه الحال لا يكون مأمورًا به، وفي جعْل أجر العافي على الله ما يُهيِّج على العفو، وأن يُعامِل العبدُ الخلْقَ بما يُحِبُّ أن يُعامِله اللهُ به، فكما يُحبُّ أن يعفوَ الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يُحِبُّ أن يُسامحه الله فليسامحْهم؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل. وأمَّا مرتبة الظلم: فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٥)، الذين يجنون على غيرهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلمٌ"(٦).

عن ابن عمر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" ما مِن جرعةٍ أعظم أجرًا عند الله مِن جرعةِ غيظٍ كظمَها عبدٌ ابتغاءَ وجهِ اللهِ" رواه ابن ماجه(٧).

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٤٨) برقم (٤٧٧٧) كتاب الأدب. باب مَن كظَمَ غيظًا. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ٢٧٧).

(٢) الشورى ٤٠.

(٣) تفسير القرطبي (١٦/ ٤٠).

(٤) الشورى ٤٠.

(٥) الشورى ٤٠.

(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٦٠).

(٧) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠١) برقم (٤١٨٩) كتاب الزهد. باب الحلم. وصحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ١٨٩).

والخلاصة ما أورده شيخنا ابن باز- رحمه الله- بقوله: إنَّ أفضل الخصال الحميدة كتم الغيظ، فكثيرٌ من الناس إذا غضب أنفذ غضبه، وتعدَّى بالضرب والقتل والسبِّ وغير ذلك، لكنَّ أهل التقوى والإيمان وأهل البصائر يُوفَّقون لكتم الغيظ، ويُعينهم اللهُ على كتم الغيظ، ويتحمَّلون ويصبرون ولا يُنفذون مُقتضى غيظهم وغضبهم، فيتحمَّلون ذلك ابتغاء وجه الله ويتصبَّرون، والله وعدهم بهذه الأحاديث الكثيرة المتعدِّدة الطرق التي يشدُّ بعضها بعضًا؛ وعدهم به خيرًا كثيرًا أنَّه يَقيهم عذابَه، وأنَّه يملأ قلوبهم أمنًا وإيمانًا، وأنَّه يُخيِّرُهم مِن الحور العين أيُّها شاءوا يوم القيامة، فهذه فضائل وكرامات وجزاءات مُتنوِّعة لهذا الأمر العظيم، فينبغي للمؤمن أن يُجاهد نفسه في ذلك وألَّا يُنفذ غضبه، ولا سيِّما إذا كان غضبه في غير طاعة الله، ولغير الله، بل لحظِّ نفسه وهواه، أمَّا إذا كان لله فليتأمَّل وليتثبَّت حتى لا يُنفذ إلَّا ما يُرضي الله، ولا يزيد على حدِّ الله وشرعه. أمَّا إذا كان لحظِّ نفسه وهواه على ولدٍ أو زوجةٍ أو جارٍ أو قريبٍ أو غير ذلك، فلْيحذرْ تنفيذ الغضب وليتحمَّلْ ولْيتصبَّرْ؛ لعلَّ الله جلَّ وعلا يرزقه هذا الخير العظيم(١).

قال العرجي الشاعر المعروف:

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُورًا كاظِمًا ... لِلْغَيْظِ تُبْصِرُ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ

فَكَفَى بِهِ شَرَفًا تَصبُّرُ سَاعَةٍ ... يَرْضَى بِهَا عَنْكَ الْإِلَهُ وَتُرْفَعُ(٢)

---

(١) ذكره الشيخ- رحمه الله تعالى- في تعليقه على تفسير ابن كثير- رحمه الله- عند قوله تعالى: {والكاظمين الغيظ} من سورة آل عمران. يُنظَر موقع الشيخ على الشبكة: https://binbaz.org.sa/audios/271/05-.

(٢) ذكره الثعلبي في تفسير= الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٢٦٥). الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي (المتوفى: ٤٢٧هـ)، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالي، أ. د. زيد مهارش، أ. د. أمين باشه، تحقيق: عدد من الباحثين (٢١) مثبت أسماؤهم بالمقدِّمة (ص ١٥)، أصل الكتاب: رسائل جامعية (غالبها ماجستير) لعددٍ من الباحثين، الناشر: دار التفسير، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.



١٣ محرم

والعافين عن الناس

عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- قال: قَدِمَ عُيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النَّفر الذين يُدنيهم عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-، وكان القُرَّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولًا كانوا أو شبَّانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي؛ هل لك وجهٌ عند هذا الأمير؟ فاستأذِنْ لي عليه. قال: سأستأذنُ لك عليه. قال ابن عبَّاس: فاستأذن الحرُّ لعُيينة، فأَذِن له عمر، فلمَّا دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطَّاب! فواللهِ ما تُعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغَضِب عمر، حتى همَّ أن يُوقِع به، فقال له الحرُّ: يا أمير المؤمنين؛ إنَّ الله تعالى قال لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(١)]، وإنَّ هذا من الجاهلين، واللهِ ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقَّافًا عند كتاب الله[(٢)].

وفي تفسير ابن كثير- رحمه الله-: عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ:" إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ يقول: أين العافون عن الناس؟ هلمُّوا إلى ربِّكم، وخذوا أجوركم، وحقٌّ على كلِّ امرئٍ مسلمٍ إذا عفا أن يدخل الجنَّة"[(٣)].

وفي الحديث:" ثلاثٌ أُقسِمُ عليهنَّ: مَا نَقصَ مالُ عبدٍ من صدَقةٍ، ولَا ظُلِمَ عبدٌ مَظلمةً صبرَ علَيْها إلَّا زادَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عِزًّا، ولَا فتَحَ عبدٌ بابَ مسألَةٍ إلَّا فتَحَ اللهُ عليه بابَ فقْرٍ" أخرجه الترمذي[(٤)].

وفي تفسير القرطبي:" وقال ابن المبارك- رحمه الله-: كنتُ عند المنصور جالسًا فأمرَ بقتْلِ رجُلٍ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين؛ قال رسول الله ﷺ:" إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ بين يدي الله- عزَّ وجلَّ-: مَن كانت له يدٌ عند الله فلْيتقدَّمْ، فلا يتقدَّمُ إلَّا مَن عفا عن ذنبٍ" فأمر بإطلاقه"[(٥)].

---

(١) الأعراف ١٩٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٠) برقم (٤٦٤٢) كتاب تفسير القرآن. باب (خُذِ العفو وأمرْ بالعُرف وأعرضْ عن الجاهلين).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٢). والأثر رواه أبو الشيخ في الثواب عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- كما ذكر ذلك السيوطي في جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» (١/ ٤٨٦). جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير»، المؤلف: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ)، المحقِّق: مختار إبراهيم الهائج- عبد الحميد محمد ندا- حسن عيسى عبد الظاهر، الناشر: الأزهر الشريف، القاهرة- جمهورية مصر العربية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٦٢) برقم (٢٣٢٥) أبواب الزهد. باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٨٠).

(٥) تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٨).

وفي تفسير ابن كثير- رحمه الله- لما أنزل الله- عزَّ وجلَّ- على نبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾(١)، قال رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال:"إنَّ الله أمركَ أن تعفوَ عمَّن ظلمك ، وتُعطي مَن حرمك ، وتصل مَن قطعك"(٢).

ثم قال:" وقد أَخَذَ بعض الحكماء هذا المعنى ، فسبكه في بيتين فيهما جناس؛ فقال:

خُذِ الْعَفْوَ وَأمُرْ بِعُرْفٍ كَمَا أُمِـرْتَ وَأَعْرِضْ عَـنِ الْجَاهِلَيْنْ
وَلِنْ فِي الْكَـلَامِ لِكُـلِّ الْأَنَامِ فَمُسْتَحسَنٌ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ لِينْ(٣)

قال جابر بن سليم أبو جري:" ركبتُ قعودي ثم أتيتُ إلى مكَّة فطلبتُ رسول الله ﷺ، فأنختُ قعودي بباب المسجد، فدلُّوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالسٌ عليه بُردٌ من صوفٍ فيه طرائق حمر، فقلتُ: السلام عليك يا رسول الله. فقال: وعليك السلام. فقلتُ: إنَّا معشر أهل البادية؛ قومٌ فينا الجفاء؛ فعلِّمْني كلماتٍ ينفعُني الله بها. قال: ادنُ- ثلاثًا- فدنوتُ فقال: أعِدْ عليَّ، فأعدتُ عليه فقال: اتقِ الله، ولا تحقرنَّ من المعروف شيئًا؛ وأن تلقى أخاك بوجهٍ مُنبسِطٍ، وأن تُفرِغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ سبَّك بما لا يعلم منك فلا تسبَّه بما تعلم فيه، فإنَّ الله جاعلٌ لك أجرًا وعليه وزرًا، ولا تَسُبَّنَّ شيئًا ممَّا خولك الله تعالى. قال أبو جري: فوالذي نفسي بيده، ما سببتُ بعده شاةً ولا بعيرًا" رواه أحمد(٤).

وعن عائشة- رضي الله عنها- أنَّها قالت:" لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا مُتفحِّشًا ولا صخَّابًا في الأسواق، ولا يُجزي بالسيِّئة السيِّئة، ولكن يعفو ويصفح" أخرجه أحمد والترمذي(٥).

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾(٦).

---

(١) الأعراف ١٩٩.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص ٢٤). مكارم الأخلاق، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١ هـ)، المحقِّق: مجدي السيد إبراهيم، الناشر: مكتبة القرآن- القاهرة.

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٣١- ٥٣٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٤/ ٢٣٧) برقم (٢٠٦٣٥) مع اختلاف يسيرٍ في القصة. والحديث صحَّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٣٣٨).

(٥) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٦٩) برقم (٢٠١٦) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في خُلُق النبي ﷺ. وكذا رواه أحمد في مسنده (٤٢/ ٢٥٦) برقم (٢٥٤١٧). وصحَّحه الألباني كما في مشكاة المصابيح (٣/ ١٦١٩).

(٦) النور ٢٢.



قال الإمام ابن كثير- رحمه الله-: هذه الآية نزلت في الصِّدِّيق؛ حين حلف ألَّا ينفع مِسْطَحَ بن أثاثة بنافعةٍ بعدما قال في عائشة ما قال، فلمَّا أنزل الله براءةَ أمِّ المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرَّت، وتاب الله على مَن كان تكلَّم من المؤمنين في ذلك، وأُقيم الحدُّ على مَن أُقيم عليه، شَرَع تبارك وتعالى- وله الفضْل والمنَّة- يُعطِّفُ الصِّدِّيق على قريبه ونسيبه، وهو مِسْطَحُ بن أثاثة، فإنَّه كان ابن خالة الصِّدِّيق، وكان مسكينًا لا مال له إلَّا ما يُنفِق عليه أبو بكر- رضي الله عنه-، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد وَلَق وَلْقَة تاب الله عليه منها، وضُرِبَ الحدَّ عليها. وكان الصدِّيق- رضي الله عنه- معروفًا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب. فلمَّا نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، أي: فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك. فعند ذلك قال الصدِّيق: بلى، واللهِ إنَّا نُحِبُّ- يا ربَّنا- أن تغفر لنا. ثم رَجَع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: واللهِ لا أنزعها منه أبدًا، في مقابلة ما كان قال: واللهِ لا أنفعه بنافعةٍ أبدًا، فلهذا كان الصدِّيق هو الصدِّيق- رضي الله عنه وعن بنته-[2].

وعن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال:" جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلمَّا كان في الثالثة، قال: اعفُ عنه في كلِّ يومٍ سبعين مرَّة" رواه أبو داود[3].

وعن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- أنَّه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتْهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرَّق الناس يستظلُّون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، وعلَّق بها سيفه ونمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي. فقال:" إنَّ هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صلتًا، فقال: مَن يمنعك منِّي؟ فقلتُ: الله. ثلاثًا، ولم يعاقبه وجلس" رواه البخاري[4].

---

(١) النور ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١).

(٣) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٣٤١) برقم (٥١٦٤) أبواب النوم. باب في حقِّ المملوك. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١١/ ١٦٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٤٠) برقم (٢٩١٠) كتاب الجهاد والسير. باب مَن علَّق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة.

والخلاصة أنَّ العفو عند المقدرة من شيم الكرام، والغدر والخيانة من شيم اللئام، وفي هذا يقول الشاعر بتصرُّف:

إِذا استطعتَ كُنْ إِمَّا رَحيمًا مُسامِحًا عِداكَ؛ وإِمَّا فارسَ الحربِ عنترا
فما اللؤمُ إِلَّا إِن حقدتَ فلم تكنْ كريمًا فتعفو أو شُجاعًا فتثأرا[1]

---

(١) يُنظَر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٧/ ١٢٨، بترقيم الشاملة آليًّا). مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، المؤلف: أحمد قبش بن محمد نجيب.



١٤ محرم

الصلاة نور

عن أبي مالك الأشعري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:"الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن- أو تملأ- ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حُجَّة لك أو عليك، كلُّ الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها" رواه مسلم(١).

قال الإمام النووي:"وأمَّا قوله ﷺ: والصلاة نور. فمعناه أنَّها تمنع من المعاصي، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتهدي إلى الصواب، كما أنَّ النور يُستضاء به. وقيل معناه: إنَّه يكون أجرها نورًا لصاحبها يوم القيامة، وقيل:لأنَّها سببٌ لإشراق أنوار المعارف، وانشراح القلب، ومكاشفات الحقائق؛ لفراغ القلب فيها، وإقباله إلى الله تعالى بظاهره وباطنه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾(٢). وقيل معناه: إنَّها تكون نورًا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة، ويكون في الدنيا أيضًا على وجهه البهاء، بخلاف مَن لم يُصلِّ"(٣).

ويقول الشيخ ابن عثيمين:" وَالصَّلاةُ نورٌ" أي صلاة الفريضة والنافلة نورٌ؛ نورٌ في القلب، ونورٌ في الوجه، ونورٌ في القبر، ونورٌ في الحشر؛ لأنَّ الحديثَ مُطلَقٌ، وجرِّبْ تجِدْ. إذا صلَّيتَ الصلاة الحقيقية التي يحضر بها قلبك، وتخشع جوارحك، تحسُّ بأنَّ قلبك استنار، وتلتذُّ بذلك غاية الالتذاذ؛ ولهذا قال النبي ﷺ:" جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ" رواه أحمد والنسائي(٤)(٥).

وقال أيضًا:" فالصلاة نورٌ" نورٌ للعبد في قلبه، وفي وجهه، وفي قبره، وفي حشره؛ ولهذا تجد أكثر الناس نورًا في الوجوه أكثرهم صلاة، وأخشعهم فيها لله عزَّ وجلَّ، وكذلك تكون نورًا للإنسان في قلبه؛

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٣) برقم (٢٢٣) كتاب الطهارة. باب فضْل الوضوء.

(٢) البقرة ٤٥.

(٣) شرح النووي على مسلم (٣/ ١٠١). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٢١/ ٤٣٣) برقم (١٤٠٣٧). والنسائي في السنن الكبرى (١٤٩/٨) برقم (٨٨٣٦) كتاب عِشرة النِّساء. باب حُبُّ النِّساء. وصحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٨٥٩).

(٥) شرح الأربعين النووية للعثيمين (ص ٢٢٢). شرح الأربعين النووية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الثريا للنشر.



تفتح عليه باب المعرفة لله عزَّ وجلَّ، وباب المعرفة في أحكام الله، وأفعاله، وأسمائه، وصفاته، وهي نورٌ في قبر الإنسان؛ لأنَّ الصلاة هي عمود الإسلام، إذا قام العمود قام البناء، وإذا لم يقم العمود فلا بناء، كذلك نورٌ في حشره يوم القيامة؛ كما أخبر بذلك الرسول ﷺ:" أنَّ مَن حافظَ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومَن لم يُحافِظ عليها لم تكن له نورًا ولا برهانًا ولا نجاة يوم القيامة، وحُشِر مع فرعون وهامان وقارون وأُبي بن خلف" أخرجه أحمد[١]، فهي نورٌ للإنسان في جميع أحواله، وهذا يقتضي أن يُحافظ الإنسان عليها، وأن يحرِص عليها، وأن يُكثِر منها حتَّى يَكثُر نوره وعلمه وإيمانه[٢].

وجاء عنه ﷺ أنَّه وصف الصلاة بالنور في قوله:" خمس صلوات كتبهنَّ الله في اليوم والليلة، مَن حافظ عليهنَّ كانت له نورًا يوم القيامة، ومَن لم يُحافظ عليها لم يكن له نورٌ يوم القيامة "[٣]، وقال ﷺ فيما يتعلَّق بالوضوء:" إنَّ أمَّتي يأتون يوم القيامة غُرًّا مُحجَّلين من أثر الوضوء "[٤].

وقال علماؤنا[٥]:" والصلاة نورٌ" هي نورٌ في الدنيا؛ لأنَّ المؤمن إذا طهَّر قلبه، وأدَّى الصلاة؛ كانت الصلاة له شحنة نور في قلبه، ولهذا يقول ﷺ:" اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنَّه ينظر بنور الله" أخرجه الترمذي[٦]، مِن أين يأتيه هذا النور؟ من عبادته، ومن صلاته:" ولا يزال يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به" رواه البخاري[٧]، فيُنير الله له بصيرته.

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٨]، إذا همَّه أمرٌ فزع إلى الصلاة، فأنار الله قلبه وبصيرته، وشرح صدره، ويسَّر أمره.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١١/ ١٤١) برقم (٦٥٧٦). والحديث ضعَّفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٤٢٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ١٩٠). شرح رياض الصالحين، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦هـ.

(٣) رواه محمد بن نصر عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- كما ذكر السيوطي في جمع الجوامع المعروف بـ «الجامع الكبير» (٤/ ٧١٥). وضعَّفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٤٢٠).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢١٦) برقم (٢٤٦) كتاب الطهارة. باب استحباب إطالة الغرَّة والتحجيل في الوضوء.

(٥) شرح الأربعين النووية لعطية سالم (٤٩/ ٧، بترقيم الشاملة آليًّا) إلى قوله هنا: وبذلك يشعر بحقيقة نور الصلاة وحلاوتها. شرح الأربعين النووية، المؤلف: عطية بن محمد سالم (المتوفى : ١٤٢٠ هـ)، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

(٦) رواه الترمذي في سننه (٥/ ٢٩٨) برقم (٣١٢٧) أبواب تفسير القرآن. باب ومن سورة الحجر. والحديث ضعَّفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (٤/ ٢٩٩).

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢) كتاب الرقاق. باب التواضع.

(٨) البقرة ٤٥.



"والصلاة نورٌ" للمؤمن في الدنيا بتوجُّهِه إلى الخير، واطمئنان النفس والقلب، وبحفظه عن المعاصي؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[١]، والصلاة نورٌ في الدنيا كما قال بعض السلف:" مَن صلَّى بالليل حسُنَ وجهُه بالنهار"[٢] أي: يُضيء وجهه، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[٣]، وهكذا في عرصات القيامة، فالصلاة نورٌ للعبد يوم القيامة.

"والصلاة نورٌ" حقيقةً يوم القيامة، ودلالة وهداية في الدنيا، ويُدرِك ذلك مَن ذاق طعم الصلاة، حينما يُؤدِّيها بخشوعها، ويُتِمُّها بركوعها وسجودها، ويُوفِّيها حقَّها مِن الطهارة، واستقبال القبلة، وستْر العورة، واستحضار القلب، وبذلك يشعر بحقيقة نور الصلاة وحلاوتها.

وقيل: معناه أنَّها تكون نورًا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة، ويكون في الدنيا أيضًا على وجهه البهاء، بخلاف مَن لم يُصلِّ، والله أعلم.

وقد بَشَّرَنا النبيُّ ﷺ بقوله:" بَشِّرِ المشَّائين في الظُّلَمِ إلى المساجدِ بالنورِ التامِّ يوم القيامة" رواه الترمذي وأبو داود[٤].

قال المباركفوري:" بالنور التامِّ" الذي يُحيط بهم من جميع جهاتهم، أي على الصراط، لما قاسوا مشقة المشي في ظلمة الليل؛ جُوزوا بنورٍ يُضيء لهم ويحيطهم[٥].

والخلاصة: أنَّ الصلاة إمَّا نورٌ حِسِّيٌّ أو معنويٌّ أو هما معًا. وإمَّا أن يكون في الدنيا فقط أو في الآخرة فقط أو فيهما معًا، وما ذلك على الله ببعيد.

---

(١) العنكبوت ٤٥.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٥٣) برقم (٤١١) عن جابر رضي الله عنه مرفوعًا. مسند الشهاب، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤ هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ– ١٩٨٦م. والحديث ذكر الألباني أنَّه موضوعٌ كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (١٠/ ١٦٩).

(٣) الفتح ٢٩.

(٤) رواه أبو داود في سننه (١/ ١٥٤) برقم (٥٦١) كتاب الصلاة. باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام. والترمذي في جامعه (١/ ٤٣٥) برقم (٢٢٣) أبواب الصلاة. باب ما جاء في العشاء والفجر في الجماعة. وابن ماجه في سننه (١/ ٢٥٧) برقم (٧٨١) كتاب المساجد والجماعات. باب المشي إلى الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٤٥).

(٥) تحفة الأحوذي (٢/ ١٣).



تُصَــلِّي بِلَا قَلْــبٍ صَــلَاةً بِمِثْلِهــَا يَكُــونُ الْفَــتَى مُسْتَوْجِبًا لِلْعُقوُبَةِ

فَوَيْحَــكَ تَدْرِي مَنْ تُنَاجِيهِ مُعْرِضًــا وَبَيْنَ يَدَيْ مَــنْ تَنْحَنِي غَيْرَ مُخْبِتِ

تُخَــاطِبُهُ "إِيَّاكَ نَعْبُــدُ" مُقْبِــلًا عَلَى غَيْرِهِ فِيهَــا لِغَيْرِ ضَــرُورَةِ

وَلَوْ رَدَّ مَنْ نَاجَــاكَ لِلْغَيرِ طَــرْفُـهُ تَمَيَّزْتَ مِنْ غَيــظٍ عَلَيْهِ وَغَيْــرَةِ

أَمَا تَسْتَحِي مِنْ مَالِكِ الْمُلْكِ أَنْ يَرَى صُدَودَكَ عَنْهُ يَا قَلِيلَ الْمُرُوءَةِ؟[١]!

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان (١/ ٢٣٤). موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، المؤلف: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.



١٥ محرم

الصدقة برهان

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في الحديث السابق: وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ[١].

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري[٢]:" والصدقة سُمِّيَتْ صدقة؛ لأنَّها دليلُ صدْقِ إيمان صاحبها؛ لأنَّ المال شقيق الروح، فمِنَ الناس مَن يفدي ماله بروحه، ومع هذا يُخرجه فيضعه في يد أرملة، لا يمكنه أن ينتفع بها قط، وقد يضعه في يد أعمى لا يراه حتى الحشر، وقد يضعه في يد بائسٍ فقيرٍ لاصقٍ بالأرض لا يُؤمّل فيه أن ينفع أحدًا، وقد يضعه في يدِ غريبٍ مسافرِ ابنِ سبيلٍ قد لا يلتقي معه الدهر كلَّه. هذه العملية ما دام الباعث عليها رجاء ما عند الله، وابتغاء ما عند الله تُسمَّى صدقة، وهي دالَّةٌ على صدق إيمان فاعلها، حقًّا إنَّه يؤمن بالله وبلقاء الله، يؤمن بالله وبالبعث الآخر الذي يتلقَّى فيه الناسُ جزاء كسبهم مِن خيرٍ أو شرٍّ. قد يتصدَّق المتصدِّق يريد وجوه الناس ليلفتها إليه، يريد من الناس أن يكَفُّوا عنه فلا يؤذونه بذمٍّ، ولكن تلك النفقة لا تُسمَّى صدقة، الصدقة ما ابتُغي به وجهُ الله، هذه دالَّة دلالة قوية على صدْق إيمان صاحبها، فلولا الإيمان ما خرج الرجل من بستانه وتركه لله.

لما نزل قول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾[٣]؛ قام أبو طلحة وكان أكثر الأنصار نخلًا ومالًا، فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله؛ لقد أُنزِلَ عليك قول الله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[٤]؛ وإنَّ مِنْ أحبِّ مالي إليَّ بيرحاء (حديقة غنَّاء ذات ماءٍ وشجرٍ ونخيلٍ، وكانت قبالة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يخرج من المسجد فيدخلها فيشرب من مائها، وكان ماؤها عذبًا. وهي إلى الآن ما زالتْ كما هي، وهي المساحة التي عليها قصر المدينة وتلك الفنادق) قال: يا رسول الله؛ ضعْها حيث أراك الله، ليكون قد استجاب لهذا الخبر وحقَّق إيمانه، وأخرج منها زوجته وأولاده وخلَّاها لله" رواه البخاري[٥].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٠٣) برقم (٢٢٣) كتاب الطهارة. باب فضْل الوضوء.

(٢) من كلمة للشيخ بعنوان الصدقة برهان. مُفرَّغة منشورة على الشبكة موقع إسلام ويب.
https://audio.islamweb.org/audio/index.php?page=FullContent&audioid=244595

(٣) آل عمران ٩٢.

(٤) آل عمران ٩٢.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١١) برقم (٢٧٦٩) كتاب الوصايا. باب إذا وقف أرضًا ولم يُبيِّن الحدود فهو جائز، وكذلك الصدقة.



مِن هنا يقول ﷺ: "والصدقة برهان" والبرهان الحُجَّة، فكيف تكون الصدقة حُجَّة، حُجَّة على مَن؟ ولمن؟ حُجَّة لصاحبها على أنَّه مؤمن، ولن يتصدَّق ابتغاء مرضاة الله وطلبًا لما عند الله إلَّا مؤمنٌ، فإذا أردتَ أن تستدلَّ على إيمانِ عبدٍ؛ فانظر: هل يتصدَّق سرًّا وخفاء؟ إن وجدتَه يتصدَّق سرًّا فاعلم أنَّه مؤمن، إذ صدقة العلن قد تكون لاعتبارات، لكن السِّرِّيَّة لن تكون إلَّا من الإيمان، هذه الصدقة التي قال فيها النبي ﷺ:" والصدقة برهان" تشمل الزكاة التي فرض الله، وتشمل صدقات التطوُّع، فالزكاة سُمِّيتْ زكاة لأنَّها تُزكِّي النفس، وسُمِّيت صدقة لأنَّها برهان على إيمان صاحبها، تدلُّ على صدقه في الإيمان. والزكاة- كما يعلم الجميع- قاعدة الإسلام، وهي أخت الصلاة وشقيقتها، والتفرقة بينهما لا تصح، كما قال أبو بكر الصديق- رضي الله عنه-: ما كنتُ أبدًا لأُفرِّق بين الصلاة والزكاة وقد جمع الله بينهما. فما ذُكرت الصلاة في الكتاب إلَّا وذُكرت الزكاة معها، فهل يُفرِّق العبد بين ما جمع الله؟ وقد قاتل أبو بكر الصديق- رضي الله عنه- مع أصحابه؛ مانعي الزكاة حتَّى أجبروهم على أدائها، وهذا الحكم باقٍ ببقاء الدين والأمَّة، أيُّما جماعةٍ أو فردٍ يمنع الزكاة إلَّا وعلى إمام المسلمين قتاله حتى يفيء إلى طاعة الله، ويُؤدِّي الزكاة التي أوجب الله، وهي- كما تعلمون- واجبة في الحبوب والثمار، وتجب في المواشي وهي الأنعام: الإبل والبقر والغنم، وتجب في النقدين، والمراد بذلك: الذهب والفضة، الدينار الذهبي والدرهم الفضي، والآن استعاض الناس عن الذهب والفضة بالعُملات المختلفة كالريال والدرهم والجنيه والدينار وما إلى ذلك من هذه الأوراق المالية، وهي قائمة مقام العين.

والصدقة نوعان: صدقة واجبة وصدقة تطوُّع، وكِلا الصدقتين برهان ساطع وحجَّة قاطعة على أنَّ المتصدِّق مؤمنٌ، ومفهومه: أنَّ الذي لا يتصدَّق ما هو بمؤمنٍ، ما آمن إيمانًا بعثه على أن يُنفِق ماله الآن ليتسلَّمه غدًا، فهو إذًا ضعيف المعتقَد في لقاء الله والبعث الآخر".

ويَكفي أنَّ المتصدِّق في ظلِّ صدقته يوم القيامة، كما في الحديث:" كلُّ امرئٍ في ظلِّ صدقته حتَّى يُقضَى بين الناس" أخرجه أحمد[1].

لذا كان بعض الصحابة والتابعين ومنهم أبو مرثد لا يُخطئه يومٌ إلَّا تصدَّق فيه بشيءٍ ولو كعكةٍ أو بصلةٍ، وقد ذكر النبيُّ ﷺ:" أنَّ من السبعة الذين يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: رجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها؛ حتَّى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه" رواه البخاري[2].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٨/ ٥٦٨) برقم (١٧٣٣٣). والحديث صحَّحه الألباني كما في الجامع الصغير وزيادته (ص ٨٦٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١١١) برقم (١٤٢٣) كتاب الزكاة. باب الصدقة باليمين. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة. باب فضْل إخفاء الصدقة.



كما أنَّ في الصدقة دواءً للأمراض البدنيَّة؛ كما في قوله ﷺ:" داووا مرضاكم بالصدقة" أخرجه أبو داود[١].

يقول ابن شقيق: سمعتُ ابن المبارك- رحمه الله- وقد سأله رجلٌ عن قُرحةٍ خرجتْ في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال: اذهبْ فاحفرْ بئرًا في مكان حاجةٍ إلى الماء، فإنِّي أرجو أن ينبع هناك عينٌ ويمسك عنك الدم، ففعل الرجلُ فبرأ[٢].

وفي الصدقة دواءٌ للأمراض القلبيَّة كما في قوله ﷺ لمن شكا إليه قسوة قلبه:" إذا أردتَ تليينَ قلبك فأطعمِ المسكينَ، وامسحْ على رأس اليتيم" أخرجه أحمد[٣].

والخلاصة: أنَّ الصدقة برهانٌ ودليلٌ على محبَّة العبد لله، ودليلٌ على إيمانه بربِّه وباليوم الآخر وبالحساب وبالجنَّة والنَّار، ودليلٌ على ثقته بمولاه وبوعده للمؤمنين المنفقين المتصدِّقين: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[٤].

قال أحمد بن جعفر البرمكي:

أَنْفِقْ وَلَا تَخْشَ إِقْلَالًا فَقَدْ قُسِمَتْ ... بَيْنَ الْعِبَادِ مَعَ الْآجَالِ أَرْزَاقُ

لَا يَنْفَعُ الْبُخْلُ مَعَ دُنْيَا مُوَلِّيَةٍ ... وَلَا يَضُرُّ مَعَ الْإِقْبَالِ إِنْفَاقُ [٥]

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل (ص ١٢٨) برقم (١٠٥). المراسيل، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقِّق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ. والحديث ذكر الألباني أنَّه ضعيف جدًّا كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (٧/ ٤٨٧) وذكر أنَّه موضوع كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (٨/ ٨٧).

(٢) ذكره البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٧٠) برقم (٣١٠٩). وضعَّفه الألباني كما في ضعيف الترغيب والترهيب (٢٨٥/١) برقم (٥٦٥). ضعيف الترغيب والترهيب، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض– المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٣/ ٢١) برقم (٧٥٧٦). وصحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٠٧).

(٤) سبأ ٣٩.

(٥) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٢/ ١٨٠، بترقيم الشاملة آليًّا).



١٦ محرم

لا تحاسدوا

عن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ:" لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكم على بَيْعِ بعضٍ، وكُونوا عبادَ الله إخوانًا، المسلمُ أخُو المسلمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَكذبُه ولَا يَحْقِرُه، التقوى ههنا– ويشير إلى صدره ثلاث مرَّات–، بِحَسْبِ امرِئٍ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخَاه المسلمَ، كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دَمُهُ ومَالُهُ وعِرْضُهُ" رواه مسلم[١].

فالحسدُ خُلُقٌ لا يليق بالمسلم، بل هو من أخلاق اليهود والمشركين، إذ عادَوا رسولَ الله ﷺ وكفَروا برسالته وهُم يعلمون أنَّها الحقُّ حسدًا من عند أنفسهم، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[٢].

والحاسدُ مُعترِضٌ على قضاء الله وقَدَرِه؛ حيث لم يرضَ بما قسم الله له ولغيره، وهو دليلٌ على قُبْح النَّفس وسوء طبعها، ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٣].

يقول ابن رجب الحنبلي: الحسد مركوزٌ في طباع البشر، وهو أنَّ الإنسان يكره أن يفوقَه أحدٌ من جنسه في شيءٍ من الفضائل[٤].

وترْك الحسد من علامات الإيمان بقضاء الله وقَدَره، وسببٌ في دخول الجنَّة، وقد شهِدَ النبي ﷺ لرجلٍ من الأنصار ثلاثَ مرَّات أنَّه من أهل الجنَّة، فلمَّا سأله عبد الله بن عمرو بن العاص– رضي الله عنه– قال: ما هو إلَّا ما رأيتَ، غير أنِّي لا أجِدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشًّا، ولا أحسد أحدًا على خيرٍ أعطاه الله إيَّاه، قال عبد الله: هذه التي بلغَتْ بكَ" أخرجه النسائي[٥].

وَلما كَانَ الحَسَدُ مِنْ صِفاتِ شَرِّ خَلْقِ اللهِ؛ فإنَّ سَلَامَةَ الصُّدُورِ مِنهُ مِنْ صفاتِ أَوْلياءِ اللهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٦) برقم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعِرضه وماله.

(٢) البقرة ١٠٩.

(٣) النساء ٥٣–٥٤.

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٠).

(٥) رواه النسائي قريبًا من هذا مُطوَّلًا في السنن الكبرى (٩/ ٣١٩) برقم (١٠٦٣٣) كتاب عمل اليوم والليلة، نوع آخر. وقد رواه أحمد في مسنده بهذا اللفظ كما في المسند (٢٠/ ١٢٥) برقم (١٢٦٩٧). والحديث أشار إلى تحسينه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة (١/ ٢٦) حيث قال:" وإسناده صحيح على شرط الشيخين؛ كما قال المنذري".



﴿فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١)، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللهُ-: أيْ: وَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِم حَسَدًا لِلمُهَاجِرِينَ فِيمَا فَضَّلَهُم اللهُ بِهِ مِنَ المَنْزِلَةِ والشَّرَفِ والتَّقدِيمِ فِي الذِّكْرِ والرُّتْبَةِ(٢).

والحسد طبيعة وفطرة ملازمة للخلْق إلَّا مَن رحم ربِّي، قلَّما ينجو ويسلم منها أحد؛ وفي الحديث:" ثلاثة لا يسلم منهنَّ أحدٌ: الطيرة ، والظنُّ، والحسد؛ فإذا تطيَّرتَ فلا ترجعْ، وإذا حسدتَ فلا تبغِ، وإذا ظننتَ فلا تُحقِّقْ" رواه الطبراني(٣)، ويقول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: ما كانت نعمة الله على أحدٍ إلَّا وجَد لها حاسدًا، فلو كان الرجل أقومَ مِنَ القدَح لَمَا عدم غامِزًا(٤)، وكما قيل: لا يخلو جسدٌ من حسدٍ، لكنَّ الكريم يُخفيه واللئيم يُبديه، ليس هذا فقط، بل إنَّ المعصية الأولى في سُلَّم المعاصي كانت معصية الحسد، فأوَّل معصية عُصِي بها اللهُ في السماء كانت معصية إبليس؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٥).

قال قتادة: حسَد عدوُّ اللهِ إبليسُ آدمَ- عليه السلام- على ما أعطاه الله من الكرامة.

كما أنَّ أوَّل معصيةٍ عُصِي بها اللهُ في الأرض كانت حسد قابيل أخاه هابيل، لقبول الله طاعته، فقتَله بغيًا وحسدًا؛ قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأٓخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٦).

وقد بيَّن ابن رجب مراتب الناس في الحسد، فقال:

١- فمنهم مَن يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل، ويسعى في نقل ذلك إلى نفسه وهو مذموم.

---

(١) الحشر ٩.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٦٩).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٢٨) برقم (٣٢٢٧). المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠ هـ)، المحقِّق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية– القاهرة، الطبعة: الثانية. والحديث ضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص ٣٧٢).

(٤) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص ٢٧١). أدب الدنيا والدين، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) الناشر: دار مكتبة الحياة، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م.

(٥) البقرة ٣٤.

(٦) المائدة ٢٧.



٢- ومنهم مَن يسعى في إزالته عن المحسود فقط من غير نقلٍ إلى نفسه، وهو شرُّهما وأخبثهما، وهذا هو الحسد المذموم المنهي عنه، وهو ذنب إبليس حيث حسد آدم.

٣- ومنهم مَن إذا حسد لم يتمنَّ زوال نعمة المحسود، بل يسعى في اكتساب مثل فضائله، ويتمنَّى أن يكون مثله في أمور الآخرة، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر- رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال:" لا حسدَ إلَّا في اثنتيْنِ: رجلٌ آتاه اللهُ مالًا، فسلَّطَه على هَلَكَتِه في الحقِّ، وآخَرُ آتاه اللهُ حكمةً، فهو يَقضي بها ويُعلِّمُها" رواه البخاري[١]، وهذا هو الغبطة.

٤- وقسم آخر إذا وجد من نفسه الحسد سعى في إزالته وفي الإحسان إلى المحسود؛ بإسداء الإحسان إليه، والدعاء، ونشْر فضائله، وفي إزالة ما وجد له في نفسه من الحسد؛ حتى يُبْدله بمحبَّة أن يكون أخوه المسلم خيرًا منه، وأفضل، وهذا من أعلى درجات الإيمان[٢].

والحسد داء الأمم السابقة كما أشار النبي ﷺ بقوله:" دبَّ إليكم داءُ الأُمَمِ قبلكم: الحسدُ والبغضاءُ، هي الحالِقةُ، لا أقولُ: تحلِقُ الشَّعرَ، ولكن تحلِقُ الدِّينَ، والذي نفسي بيده؛ لا تدخلوا الجنَّةَ حتى تُؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أفلا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم، أَفشوا السلَامَ بينكم" أخرجه الترمذي[٣].

وقال الحسن البصري- رحمه الله-: يا بن آدم؛ لا تحسِدْ أخاك، فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه؛ فلا تَحسِدْ مَن أكرمه الله تعالى، وإن كان لغير ذلك فلِمَ تحسِدُ مَن مصيرُه إلى النَّار[٤].

والحسد دليلٌ على خُبْث نفْس الحاسد كما قال ابن القيم في زاد المعاد عن الحسد: وهو أصل الإصابة بالعين؛ فإنَّ النفس الخبيثة الحاسدة تتكيَّف بكيفيَّةٍ خبيثةٍ، وتقابل المحسود فتُؤثِّر فيه بتلك الخاصية، ولذا من الرقية الشرعيَّة التعوُّذ بالله من الحاسد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٥].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم (٧٣) كتاب العلم. باب الاغتباط في العلم والحكمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٥٩) برقم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل مَن يقوم بالقرآن ويُعلِّمه وفضْل مَن تعلَّم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلَّمها.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٠-٢٦٣) بتصرُّف.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٤) برقم (٢٥١٠) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ١٠).

(٤) ذكره الهيتمي كما في الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٩٣). الزواجر عن اقتراف الكبائر، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ)، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٥) الفلق ٥.



والخلاصة: أنَّ الحاسد لا ينال الخيرية المشهود لها من خير البرية ﷺ، فقد قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الناس أفضل؟ قال:" كلُّ مخموم القلب، صدوق اللِّسان"، قالوا: صدوق اللِّسان نعرِفه، فما مخمومُ القلب؟ قال:" هو التقيُّ النقيُّ، لا إثمَ فيه، ولا بغيَ، ولا غِلَّ، ولا حسدَ" رواه ابن ماجه(١).

حَسَدُوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَه ... فالناسُ أعداءٌ له وخُصُومُ
كضرائرِ الحسناءِ قُلنَ لوجْهِها ... حَسَدًا وبَغيًا: إنَّه لدميمُ(٢)

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٩) برقم (٤٢١٦) كتاب الزهد. باب الورع والتقوى. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ٢١٦).

(٢) ذكره الماوردي في الأمثال والحكم (ص ٢٢٧). الأمثال والحكم، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠ هـ)، تحقيق ودراسة: المستشار الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.



١٧ محرم

وبالوالدين إحسانًا

يقول عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-:" سألتُ النبي ﷺ: أيُّ العملِ أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاةُ على وقتِها، وقال: قلتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قال: برُّ الوالدين، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: الجهادُ في سبيلِ اللهِ" أخرجه النسائي[1].

وروى الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئبُ فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنَّما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنَّما ذهبَ بابنك، فتحاكما إلى داود- عليه السلام- فقضي به للكُبرى فخرجتا على سليمان بن داود – عليهما السلام- فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسِّكِّين أشقُّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعلْ رحمَكَ اللهُ؛ هو ابنها، فقضى به للصغرى[2]، لأنَّه علم من قولها أنَّها أُمُّه الحقيقية؛ فالأمُّ التي حملتْ في بطنها، وأرضعتْ من ثديها، وتحمَّلتْ الآلام والأوجاع، وسهرتْ وتعبتْ؛ لا تقبل بحالٍ من الأحوال أن يُشقَّ ولدها على مرأى ومسمعٍ منها، وإنَّما هي تتمنَّى له الحياة؛ حتَّى وإن عاش بعيدًا عنها.

لذا جعلتْ شريعتنا الغراء على لسان حبيبنا المصطفى ﷺ للأمِّ ثلاثة أرباع البِرِّ، يقول أبو هريرة- رضي الله عنه-:" جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ مَن أحقُّ الناس بحُسنِ صحابتي؟ قال: أمُّكَ، قال: ثم مَن؟ قال: أمُّكَ، قال: ثم مَن؟ قال: أمُّكَ، قال: ثم مَن؟ قال: ثم أبوكَ" رواه مسلم[3].

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/ ٢٢٧) برقم (١٥٩٣) كتاب قيام الليل وتطوُّع النهار. باب فضْل الصلاة لوقتها. والحديث رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٢) برقم (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة. باب فضْل الصلاة لوقتها. ومسلم في صحيحه (١/ ٨٩) برقم (٨٥) كتاب الإيمان. باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٦٢) برقم (٣٤٢٧) كتاب أحاديث الأنبياء. باب قول الله تعالى:{ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنَّه أوَّاب} الراجع المنيب. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٤٤) برقم (١٧٢٠) كتاب الأقضية. باب بيان اختلاف المجتهدين.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢) برقم (٥٩٧١) كتاب الأدب. باب مَن أحقُّ الناس بحُسن الصحبة. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٧٤) برقم (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة والآداب. باب برِّ الوالدين وأنَّهما أحقُّ به.



ووالله الذي لا إله غيره؛ لن نُوفِّيَها حقَّها مهما فعلنا من أجلها، فعن أبي بردة أنَّه شهد ابن عمر- رضي الله عنهما- ورجلٌ يمانيٌ يطوف بالبيت يحمل أُمَّه وراء ظهره يقول:

إنِّي لها بعيرُها المذلَّل　　　إنْ أذعرتْ ركابُها لم أذعرِ

ثم قال: يا ابن عمر؛ أتراني جزيتُها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة[١].

وفي رواية: فقال الرجل: أليس قد حملتُها على ظهري، وحبستُ نفسي عليها؟ قال: إنَّها كانتْ تصنع ذلك بك وهي تتمنَّى بقاءك، وأنت تصنع ذلك وتتمنَّى فراقها[٢].

وإذا أردتَ أن تعرف الفرق بين قلب الأب والأمِّ وبين قلب الابن؛ فانظر إلى حال يعقوب- عليه السلام- لما غاب عنه ولده تفطَّر قلبه وذهب بصره، وكاد أن يهلك من الحزن على ولده ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[٣]، ومع أنَّ الابن هنا هو نبي الله يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم والذي كان بارًّا بوالديه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٤]، إلَّا أنَّ القرآن لم يذكر لنا حزنه على فراق والده، بل حكى لنا معاناة الوالد وحزنه على ولده حتَّى ابيضَّت عيناه من الحزن، إنَّه قلب الوالد.

ولذلك كان للوالد نصيبٌ في أبواب الجنَّة الثمانية قال رسول الله ﷺ:" الوالد أوسط أبواب الجنَّة". يقول أبو الدرداء- رضي الله عنه-:" فإن شئتَ فأضِعْ ذلك الباب أو احفظْه" أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي[٥].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٨) برقم (١١) باب جزاء الوالدين. الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية— بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ— ١٩٨٩م. وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٦). صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، حقَّق أحاديثه وعلَّق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) ذكره ابن الجوزي في البر والصلة (ص ٤٠). البر والصلة لابن الجوزي، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم: عادل عبد الموجود، علي معوض، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت— لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(٣) يوسف ٨٤- ٨٥.

(٤) البقرة ٨٣.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٤٥/ ٥٠٤) برقم (٢٧٥١١)؛ والترمذي في جامعه (٤/ ٣١١) برقم (١٩٠٠) أبواب البر والصلة. باب ما جاء من الفضْل في رضا الوالدين؛ وابن ماجه في سننه (١/ ٦٧٥) برقم (٢٠٨٩) كتاب الطلاق. باب الرجل يأمره أبوه بطلاق امرأته. والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٨٣).



وأَمَرنا ربُّنا سبحانه وتعالى ببرِّهما معًا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[١]، والإحسان نهاية البِرّ وذروة سنامه، وقال أيضًا: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[٢]، فقرن البِرَّ بعبادته عزَّ وجلَّ، وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[٣].

لذا كان الصحابي الجليل أبو هريرة- رضي الله عنه- إذا خرج من بيته صاح بأعلى صوته: السلام عليكِ ورحمة الله وبركاته يا أمَّاه، فتقول له أُمُّه: وعليكَ السلام ورحمة الله وبركاته يا بُنيَّ، فيقول: رحمكِ اللهُ كما ربَّيتِيني صغيرًا، فتقول: وأنتَ يا بُنيَّ، فجزاكَ اللهُ خيرًا ورضي عنك كما بررتَني كبيرًا[٤].

والقرآن ضرب لنا أروع الأمثلة من حياة الأنبياء وبرِّهم بآبائهم وأُمَّهاتهم، فهذا نبي الله يحيى- عليه السلام- لما آتاه الله الحُكم في الصِّبا وَصَفَه بالبِرِّ لوالديه ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[٥] وهذا عيسى- عليه السلام- أيضًا لما تكلَّم في المهد قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[٦]، ولأنَّ الجزاء يكون دائمًا من جنس العمل، ولما كان إبراهيم بارًّا بوالديه رُزِق بالولد البارِّ، فوالله الذي لا إله غيره؛ لن تجني إلَّا ما تزرعه في ولدك.

وينشأُ ناشئُ الفتيان منَّا   على ما كان عوَّدَه أبوه[٧]

فإذا رآك ولدُك بارًّا بوالديك سيتعلَّم منك وستجني منه البِرَّ، وإن كانت الأخرى فلا تلومَنَّ إلَّا نفسَك، فنحن كثيرًا ما نسمع خُطباءنا يذكرون قصَّة الرجُل الذي أراد قتْل والده وذهب به إلى الصحراء، فلمَّا أحسَّ والدُه منه ذلك؛ قال: يا بُنيَّ؛ إن كنتَ لا بُدَّ قاتِلي؛ فاقتلني عند هذه الصخرة، فقال الولد: ولِمَ يا أبي؟ فقال له: لأنِّي قتلتُ والدي عندها، ولك غدًا مثلُها يا بُنيَّ، فاعتبروا يا أولي الألباب.

---

(١) البقرة ٨٣.

(٢) النساء ٣٦.

(٣) الإسراء ٢٣- ٢٤.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٨). وحسَّن إسناده الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٧).

(٥) مريم ١٤.

(٦) مريم ٣٢.

(٧) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ١٠، بترقيم الشاملة آليًّا).



جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد في سبيل الله، وكلُّنا يعلم فضْل الجهاد في سبيل الله، فقال له النبي ﷺ: أحيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهِدْ" رواه البخاري[١]، فتبيَّن أنَّ بِرَّ الوالدين مُقدَّمٌ على الجهاد في سبيل الله؛ وفي رواية أخرى: قال الرجل: ولقد تركتُ أبوَيَّ يبكيان، قال ﷺ:" ارجعْ إليهما فأضحِكْهما كما أبكيتَهما" أخرجه النسائي[٢].

حتَّى وإن كان الوالدان على غير دين الإسلام؛ يأمرنا الحبيب ﷺ بالبِرّ والصلة لهما، فهذه أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهما- تقول: قلتُ للنبي ﷺ: إنَّ أُمِّي قدمتْ عليَّ وهي راغبةٌ أفأصلها؟ قال:" نعم، صِلي أمَّكِ" رواه البخاري[٣]، وذلك امتثالًا منه ﷺ لأمْرِ ربِّنا ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾[٤].

والخلاصة: أنَّ مَنْ أرادَ النجاحَ والفلاحَ فلْيَبَرَّ أبَوَيْهِ، فإنَّ بِرَّ الوالِدَيْنِ بَرَكَةٌ في الدُّنْيا والآخرةِ.

وأطِـعْ أبــــاكَ فإنَّه ... ربَّاكَ مِن عهــدِ الصِّغَرْ
واخضعْ لأُمِّكَ وارضِها ... فعُقوقُها إحدى الكُبَرْ[٥]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٥٩) برقم (٣٠٠٤) كتاب الجهاد والسير. باب الجهاد بإذن الوالدين. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٧٥) برقم (٢٥٤٩) كتاب البر والصلة والآداب. باب برِّ الوالدين وأنَّهما أحقُّ به.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى (٧/ ١٧٥) برقم (٧٧٣٨) كتاب البيعة، البيعة على الهجرة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٩/ ٢٣٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠٣) برقم (٣١٨٣) كتاب الجزية. باب بدون ترجمة. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٩٦) برقم (١٠٠٣) كتاب الزكاة. باب فضْل النفقة والصدقة على الأقربين.

(٤) لقمان ١٥.

(٥) يُنظَر: برُّ الوالدين (ص ١٥، بترقيم الشاملة آليًّا). برُّ الوالدين، المؤلف: أزهري أحمد محمود، الناشر: دار ابن خزيمة.

١٨ محرم

لئن شكرتم لأزيدنّكم

ذُكِر أنَّ أعرابيًّا دخل على هارون الرشيد الخليفة العباسي فقال: يا أمير المؤمنين؛ ثبَّتَ الله عليك النعم التي أنتَ فيها بإدامة شكرها، وحقَّق لك النعم التي ترجوها بحُسن الظنِّ به ودوام طاعته، وعرَّفك النعم التي أنتَ فيها ولا تعرفها لتشكرَها، فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحسنَ تقسيمَه!![١]

فالشكر فضائله عظيمة:

١- فهو سببٌ لنيل مرضاة الله، قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٢].

٢- والشكر يُوجِب الزيادة للشاكر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[٣]؛ قال الحسن البصري- رحمه الله-: إنَّ الله ليُمتِّع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشكَرْ عليها قلبها عذابًا، ولهذا كانوا يُسمُّون الشكر بالحافظ لأنَّه يحفظ النعم الموجودة، وبالجالب لأنَّه يجلب النعم المفقودة[٤].

٣- كما أنَّ الشكر سبيلٌ للنَّجاة من العذاب، قال عزَّ مِن قائل: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٥].

٤- الشكر سببٌ للأجر الجزيل في الآخرة: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٦]، وقال تعالى في الآية التي تليها: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٧].

---

(١) ذكرها ابن القيم في كتابه الفوائد (ص ١٧٣). الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

(٢) الزمر ٧.

(٣) إبراهيم ٧.

(٤) ذكره ابن القيم في عدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص ١٢٠). عدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت / مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٥) النساء ١٤٧.

(٦) آل عمران ١٤٤.

(٧) آل عمران ١٤٥.



وممَّا يُؤكِّد على فضْل الشكر أنَّ الله تعالى خصَّ الشاكرين بمنَّته ورحمته وفضله، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١).

وشكر الله تعالى يأتي على ثلاثة أنواع:

أوَّلًا: شكره بالقلب: وهو اعتقاد الإنسان اعتقادًا جازمًا بأنَّ ما به من النعم والهبات؛ هي من الله وحده لا شريك له في حصوله عليها وتنعُّمه بها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾(٢).

وقد رُوي عن داود- عليه السلام- أنَّه قال: يا ربِّ؛ كيف أشكُرُك؟ وشُكري لك نِعمةٌ مِنكَ علَيَّ، فقال الله تعالى:" يا داود؛ الآنَ شكَرتَني، إذ علمتَ أنَّ ذلكَ منِّي"(٣).

ثانيًا: شكره باللِّسان: وذلك بالتحدُّث بعطايا الله ونعمه والثناء عليه وحمده على ما أسبغ من النعم الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(٤).

فإذا ما أراد العبد أن يُحقِّق عبودية الشكر ويجني ثمارها ويكسب فضائلها؛ فعليه أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يُلهمه الشكر ويُعينه عليه، قال تعالى على لسان نبيه سليمان- عليه السلام-: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٦).

ويُؤيِّد ذلك وصية الحبيب ﷺ لمعاذ بن جبل- رضي الله عنه- حين قال له:" واللهِ يا مُعاذ؛ إنِّي أُحِبُّكَ، فلا تَدعنَّ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ أن تقول: اللهمَّ أعِنِّي على ذِكْرِك وشُكرِك وحُسْنِ عبادتِك" أخرجه أبو داود(٧).

---

(١) الأنعام ٥٣.

(٢) النحل ٥٣.

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ٢٣٥).

(٤) الضحى ١١.

(٥) النمل ١٩.

(٦) الأحقاف ١٥.

(٧) رواه أحمد في مسنده (٣٦/ ٤٣٠) برقم (٢٢١١٩). وأبو داود في سننه (٢/ ٨٦) برقم (١٥٢٢) باب تفريع أبواب الوتر. باب في الاستغفار. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٤٧) برقم (٩٨٥٧) كتاب عمل اليوم والليلة. الحث على قول: «رب أعِنِّي على ذِكْرك وشُكرك وحُسْن عبادتك» دبر الصلوات. والحديث صحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٢٥٦).



ويُلحَق بشكر الله سبحانه وتعالى؛ شكرُ الناس على صنائعهم ومعروفهم وإحسانهم؛ فـ" مَن لا يشكُرُ الناسَ لَا يشكُرُ اللهَ" أخرجه الترمذي[١]. وفي بعضِ الروايات:" أشكَرُ النَّاسِ للهِ أشكَرُهم للنَّاسِ" أخرجه أحمد[٢].

ثالثًا: شكره تعالى بالجوارح والأعضاء وتسخير ما أَوْلاكَ به سبحانه وتعالى من النعم فيما يُرضيه، وصرْفها في محبوباته وطاعته، وأن لا يستعملها العبد فيما يسخطه ويبغضه والتخوُّض فيه بغير حقٍّ؛ فعن خولة بنت قيس الأنصارية- رضي الله عنها- قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:" إنَّ رجالًا يَتَخَوَّضُونَ في مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، فلهمُ النارُ يومَ القيامةِ"[٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٤].

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الشكر بالعمل عندما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٥].

واعلموا أنَّ بقاء هذه النعم مرهونٌ بشكرها ورعايتها حقَّ رعايتها واستخدامها في مرضاة الله عزَّ وجلَّ، ورحم اللهُ الإمام الشافعي حيث قال:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها ... فإنَّ المعاصي تُزيل النِّعمْ

وداوِمْ عليها بشُكْرِ الإلهِ ... فإنَّ الإلهَ سريعُ النِّقمْ[٦]

وعلى المسلم الإكثار من التفكُّر في كثرة نعم الله تعالى وعطاياه، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٧]؛ يقولُ طَلَقُ بن حبيب- رحمه الله-: إنَّ حُقوقَ اللهِ أعظَمُ مِن أن يقومَ بها العبادُ، ونِعمُ اللهِ أكثرُ مِن أن يُحصِيها المِداد، ولكن أصبِحُوا تائِبين، وأمسُوا تائِبين، واغدُوا شاكِرين، ورُوحُوا شاكِرين"[٨].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٣٩) برقم (١٩٥٤) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١١٢٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٦/ ١٦٦) برقم (٢١٨٤٦). وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٣٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٨٥) برقم (٣١١٨) كتاب فرض الخمس. باب قول الله تعالى: {فأنَّ لله خمسه وللرسول} الأنفال ٤١.

(٤) يونس ٥٩.

(٥) سبأ ١٣.

(٦) يُنظَر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١٠/ ٣٦٩، بترقيم الشاملة آليًّا).

(٧) إبراهيم ٣٤.

(٨) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٨٢) برقم (٣٥١٥٨) دون قوله:" واغدوا شاكرين، وروحوا شاكرين".



ولْيستشعرْ حجم المسؤولية والوقوف بين يدي المعطي– سبحانه وتعالى- حينما يسأل عباده يوم القيامة عن النعم وشكرهم لها، ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[١].

والخلاصة: أنَّ على المسلم أن يعلم أنَّ في إخلاله بعبودية الشكر استجابةً لإبليس اللعين؛ حيث أقسم بأن يصرف المؤمنين عن شكر الله تعالى كما جاء في الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[٢].

وأنَّ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ قد بيَّن الشكر بالعمل، فقد كان ﷺ يقوم الليل حتَّى تتفطَّر أو تتورَّم قدماه، وعندما يُسأل: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فيقول:" أَفَلاَ أَكُون عَبْدًا شَكُورًا" رواه البخاري[٣].

أفلا نكون نحن أولى من رسول الله ﷺ، ونكون عبيدًا لله شكورين؟!!

---

(١) التكاثر ٨.

(٢) الأعراف ١٦– ١٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٠) برقم (١١٣٠) كتاب التهجُّد باب: قيام النبي ﷺ الليل حتَّى تورَّم قدماه. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧١) برقم (٢٨١٩) كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار. باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة.



١٩ محرم

إنَّ الله مع الصابرين

يقول رسول الله ﷺ:" عَجَبًا لأَمْرِ المؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيْرًا له، وإنْ أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له" رواه مسلم(١).

وحقيقة الصبر: ترْك الشَّكوى من ألَمِ البلوى لغير الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى أثنى على أيوب- عليه السلام- بالصبر، بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾(٢)؛ مع دعائه في دفْع الضُّر عنه بقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٣).

والصَّبرُ ثلاثةُ أنواع:

١- منها الصبر على الأوامر والطاعات حتَّى يُؤدِّيها، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾(٤)، وقال أيضًا :﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(٥).

٢- ومنها الصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وأكثر الناس يفعل الطاعات ويصبر عليها، ولكنَّه لا يصبر عن المعاصي، فلا يوصف بأنَّه من الصابرين.

٣- ومنها الصبر على الأقدار والمصائب حتى يعلم بأنَّ المصيبة مُقدَّرة من الله تعالى، وأنَّ مَنْ صَبَرَ أُجِرَ، وأمْرُ اللهِ نافذ، ومَنْ جَزِعَ وتسخَّط أثِمَ، وأمْرُ اللهِ نافذ، ومِصداقُه قول النبيِّ ﷺ:" إنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ" رواه الترمذي(٦).

وقد أثنى الله تعالى على أهل الصبر؛ فقال سبحانه: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(٧)؛ كما أوجبَ سبحانه وتعالى محبَّته للصابرين: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٨)، والصبرُ خيرُ ما يُعطاه العبد؛ كما في قوله ﷺ:" وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ"(٩).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٥) برقم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمنُ أمرُه كلُّه خيرٌ.

(٢) ص ٤٤.

(٣) الأنبياء ٨٣.

(٤) الحجر ٩٩.

(٥) الرعد: ٢٢.

(٦) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠١) برقم (٢٣٩٦) أبواب الزهد. باب ما جاء في الصبر على البلاء. والحديث حسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٢٤).

(٧) البقرة ١٧٧.

(٨) آل عمران ١٤٦.

(٩) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٣) برقم (١٤٦٩).



والمسلمون يتفاضلون فيما بينهم بمقدار صَبْرِهم؛ كما قال رسول الله ﷺ:" الْمُسْلِمُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ؛ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ" رواه الترمذي(١).

وللصبر أجرٌ عظيم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢)؛ وقال سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣). وقال النبي ﷺ:" يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ؛ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ" رواه الترمذي(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام:" إِنَّ اللَّهَ تعالى قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ (يُرِيدُ عَيْنَيْهِ) فَصَبَرَ؛ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ" رواه البخاري(٥).

ومنها الصبر في الدعوة إلى الله تعالى، وما يترتَّب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأذى والألَم، وقد جاء تأكيد ذلك في وصية لقمانَ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(٦).

ومِن أهمِّ آدابِ الصبر أن يكون عند الصَّدمةِ الأُولى؛ فعن أَنَسِ بْنِ مَالِك- رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى عَلَى امْرَأَةٍ تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا، فَقَالَ لَهَا: اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَقَالَتْ: إليكَ عنّي؛ فإنَّك لم تُصَبْ بِمُصِيبَتِي. فَلَمَّا ذَهَبَ قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. أَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ، فَأَتَتْ بَابَهُ فَلَمْ تَجِدْ عَلَى بَابِهِ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ:" إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَدْمَةِ الأُولَى" رواه البخاري(٧).

ومن آداب الصبر أيضًا الصبرُ على موتِ الأَحِبَّة وخاصَّة الأبناء؛ ففي حديث أبي موسى- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" إذا مات ولدُ العبدِ قال اللهُ لملائكته: قبضتُم ولد عبدي؟

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٣) برقم (٢٥٠٧) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع. باب بدون ترجمة بلفظ: «المسلم إذا كان يخالط الناس ...». ورواه أحمد في مسنده (٩/ ٦٤) برقم (٥٠٢٢). وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٣٨) برقم (٤٠٣٢) كتاب الفتن. باب الصبر على البلاء. كلاهما بلفظ:" المؤمن الذي ..". والحديث صحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٦١٤).

(٢) الزمر ١٠.

(٣) النحل ٩٦.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٠٣) برقم (٢٤٠٢) أبواب الزهد. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٣٥٨).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١١٦) برقم (٥٦٥٣) كتاب المرضى. باب فضْل مَن ذهب بصرُه.

(٦) لقمان ١٧.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم (١٢٨٣) كتاب الجنائز. باب زيارة القبور.



فيقولون: نعم، فيقول: قبضتُم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدكَ واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّة، وسمُّوه: بيت الحمد" رواه الترمذي(١).

وكفى الصابر أجرًا وثوابًا أنَّه لا جزاء له إلَّا الجنَّة ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما-:" أَتَتِ امرأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي. قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ، فَقَالَتْ: أَصْبِرُ. فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا" رواه مسلم(٢).

ويجب على المسلم إذا نزلتْ به مصيبة أن يتذكَّر قول رسول الله ﷺ:" مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا؛ إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا". تقول أم سلمة- رضي الله عنها- وهي راوية الحديث:" فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ؛ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ؛ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ" رواه مسلم (٣).

والخلاصة: أنَّ الدنيا دار بلاء وابتلاء، والإنسان فيها مُعرَّضٌ للمصائب، فعلينا بالصبر ولْنعلمْ أنَّ مُصابَنا بموت الرسول ﷺ أعظم، وأنَّ كلَّ مصيبةٍ دون مصيبتِنا بموتِ النبيّ ﷺ تهون، فبِموتِه انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة، وانقطعت النُّبوَّات، يقول النبيُّ ﷺ:" إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ" أخرجه الطبراني(٤)، وفي رواية أخرى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ؛ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي" رواه ابن ماجه(٥).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٣٣٢) برقم (١٠٢١) أبواب الجنائز. باب فضْل المصيبة إذا احتسب. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣/ ٢١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٤) برقم (٢٥٧٦) كتاب البر والصلة والآداب. باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتَّى الشوكة يُشاكُّها.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٦٣١) برقم (٩١٨) كتاب الجنائز. باب ما يُقال عند المصيبة.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١٦٧) برقم (٦٧١٨). وقد رواه الدارمي في سننه (١/ ٥٣) برقم (٨٤). والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٤٢٤). والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ١٢٤). سنن الدارمي، المؤلف: عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي/ الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٥) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٥١٠) برقم (١٥٩٩) كتاب الجنائز. باب ما جاء في الصبر على المصيبة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٤/ ٩٩).



وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

فَاصْــــبِرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ وَتَجَلَّدِ   وَاعْلَـــمْ بِأَنَّ المـــــــرءَ غَيرُ مُخَلَّدِ
وَاصْبِرْ كما صَبَرَ الكِرامُ فَإِنَّهَا   نُوَبٌ تنوبُ اليومَ تُكْشَفُ فِي غَدِ
فَإِذا أَتَتْكَ مُصِيبَةٌ تســـلو بها   فَاذْكُـــرْ مُصَـــابَكَ بِالنَبِيِّ مُحَمَّدِ[1]

(١) دروس للشيخ علي القرني (٧/ ٥، بترقيم الشاملة آليًّا). دروس للشيخ علي القرني، المؤلف: علي بن عبد الخالق القرني، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.



٢٠ محرم

وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلَّا هو

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[(١)]. وقال أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[(٢)]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[(٣)].

إنَّ الله جلَّت قدرته بيده ملكوت كلِّ شيء، وبيده مقاليد كلِّ شيء، وكلُّ ما في هذا الكون مُسخَّرٌ لله جلَّ وعلا، بل إنَّ الكون كلَّه جندٌ من جنود الله عزَّ وجلَّ ، يُسخِّره كيف يشاء.

فالريحُ مثلًا جندٌ من جنود الله، يُهلِك به مَن أراد مِن الأقوام والمجتمعات التي طغتْ عن أمْر ربِّها وكذَّبت رسله، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[(٤)].

والماءُ كذلك جُندٌ من جنود الله، أهلك به اللهُ جلَّ وعلا أقوامًا تمرَّدوا على شرع الله، وفسقوا وظلموا، فكان عاقبتهم أن سلَّط الله عليهم هذا الجندي من جنوده، فأغرق القوم قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٥)].

هذا الماء كان وبالًا على الظالمين الكافرين، فأغرق الله به فرعون وجنوده، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(٦)].

---

(١) الفتح ٤.

(٢) الفتح ٧.

(٣) المدثر ٣١.

(٤) الحاقة ٥-٨ .

(٥) هود ٤١-٤٤.

(٦) يونس ٩٠.



وكان الماءُ أيضًا جُندًا من جنود الله في غزوة بدر عندما كان في صفِّ الجيوش المسلِمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾(١).

ومن جنود الله أيضًا والذي يكون عونًا من الله تبارك وتعالى للفئة المؤمنة "الحَجر"، نعم، الحَجر يُسخِّره الله سبحانه وتعالى لمن شاء من عباده نصرًا وتأييدًا لهم.

وللحَجر قصة طويلة عبر التاريخ مع المسلمين والمؤمنين.

فإبراهيم عليه السلام حين يلاحقه إبليس ليمنعه من ذبْح ولده إسماعيل، يلتقط حَجرًا، ويقذفه في وجه الشيطان راجمًا إياه، ويعاود إبليس المحاولة مرَّة ثانية وثالثة، ولكن إبراهيم عليه السلام يعاود رجمه في كل مرَّة حتى يأس، لتصبح هذه سُنَّة خالدة، وواجبًا يُؤدِّيه الحاجُّ في ذلك المكان إلى يوم الدين، اقتداءً بسُنَّة إبراهيم الخليل عليه السلام، وتعبيرًا عن العداء الأبدي بين المسلم وبين الشيطان.

ثم مع موسى عليه الصلاة والسلام؛ يطلب موسى من ربِّه السُّقيا لقومه، فيستجيب الله له، ويأمره أن يضرب بعصاه حَجرًا. فينفجر من ذلك الحَجر بأمر الله جلَّ وعلا؛ اثنتا عشرة عينًا، بعدد أسباط بني إسرائيل.

ثم مع قوم لوط عليه السلام، عندما ارتكب قومه تلك الجريمة البشعة التي تُنافي الدين والخُلُق والكرامة والمروءة، والتي تتعارض مع الفطرة السليمة، حتَّى قيل بأنَّ أولئك القوم هم أوَّل مَن أحدثوا هذه الفِعلة الشنيعة، ولم يكن لهم سابِقٌ في هذا الأمر، فبعد ما دعاهم نبيُّهم لوط عليه السلام وحذَّرهم؛ رفضوا وأصرُّوا على جريمتهم النكراء، فأرسل الله ملائكته وأمرهم أن يُمطروهم بحجارة من طين، مُسوَّمة عند ربِّك للمسرفين، فكانت الحجارة سلاحًا إلهيًّا فتَّاكًا ومُدمِّرًا في يد الملائكة. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٢).

ويدور الزمان دورته، ويغزو أبرهةُ مكةَ بجيشٍ جرَّارٍ تتقدَّمُه الفيلة، وهو يريد هدْم بيت الله العتيق، ويعجز العرب عن التصدِّي لهذا الزحف الهائل، لضآلة مكانتهم، وتفرُّقهم إلى قبائل متناحِرة لا يجمعها دِينٌ، ولا تُوحِّدها عصبية، ويقفون موقف المترقِّب العاجز، الذي لايُحرِّك ساكنًا، والذي لا يدري ما

---

(١) الأنفال ١١.

(٢) هود ٨٢-٨٣ .



يَفعَل وما يُفعَل به، فلا يجد عبد المطِّلِب زعيمُ قريش في ذلك الوقت حيلةً إلَّا التعلُّق بأستار الكعبة وهو يُردِّد:

اللهُمَّ إنَّ العبدَ يمنع رحلَه فامنعْ رحـالَكْ

لا يغلبنَّ صليبُهم ومحالُهـم أبدًا محـالَكْ

إنْ كنتَ تاركَهم وقبلتَنا فأمرٌ مَا بدا لَكْ[١]

وبعد أن يصل الأمرُ بقريش مبلغًا عظيمًا، حتَّى تركوا ديارهم وخرجوا من مكَّة لا حول لهم ولا قوَّة؛ عندئذٍ يُرسل الله عزَّ وجلَّ جُندًا من جنوده؛ طيرًا ينزل من السماء يحمل حجارة من طين، فتنزل هذه الحجارة على ذلك الجيش كالقنابل فتحرقهم وتتركهم كأوراق الشجر الجافَّة المحترقة، ويحفظ الله بيته، ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾[٢].

ثم يأتي وعْدُ رسول الله ﷺ في آخر الزمان:" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا الْيَهُودَ، فيختبئ اليهوديُ خلفَ الحجرِ والشجرِ، فيَقُولَ الْحَجَرُ والشجرُ: يَا مُسْلِمُ؛ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، تعال فَاقْتُلْهُ" رواه البخاري[٣].

والخلاصة: أنَّ جُنود الله لا تُحصَى، ولا يعلمها إلَّا خالقها، فعلى العبد المسلم أن يُسلِم أمره إلى الله، وأن يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا فإنَّما يقول له كن فيكون، فعليه باللجوء إلى الله، والتوكُّل عليه، واستمداد القوَّة منه، ودعائه سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

---

(١) المنمق في أخبار قريش (ص ٧٦). المنمق في أخبار قريش، المؤلف: محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (المتوفى: ٢٤٥هـ)، المحقِّق: خورشيد أحمد فاروق، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) الفيل ١-٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٤٣) برقم (٢٩٢٦) كتاب الجهاد والسير. باب قتال اليهود.

(٤) آل عمران ١٧٣-١٧٤.



وصدق الدكتور الشاعر عبد الحميد محمد بدران حيث قال:

هَلْ سَاءَلُوا الشَّرْقَ عَنْ بَدْرٍ وَمَا صَنَعَتْ   عَزَائِمُ الْجُنْدِ فِي الْهَيْجَا بِوَادِينَا
يَرْمُونَ صَدْرَ الْعِدَا بِالقَتْلِ مُفْتَخِرًا   وَاللَّهُ يَرْمِي وَنَصْرُ اللَّهِ حَادِينَا
إِنْ تَنْصُـــــرُوا اللَّهَ- جُنْدَ اللَّهِ – نَاصِرَ   كُـمْ حَتَّى يَقُولَ الْعِدَا: لَلَّهُ يَرْمِينَا[1]

(١) قصيدة للدكتور عبد الحميد محمد بدران بعنوان: الله أكبر (قصيدة عن غزوة بدر). نُشِرتْ على موقع الألوكة.



٢١ محرم

كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾[١]، كلُّنا مرهونون بأعمالنا، ومُحاسَبون على أقوالنا وأفعالنا، ومُساءَلون يوم القيامة على تصرُّفاتنا، فلْنسألْ أنفسنا: هل نحن مُستعِدُّون ليوم القيامة ولقاء الله تعالى؟ يقول الرسول ﷺ:" مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ" رواه البخاري[٢].

إنَّنا واللهِ نخاف على أنفسنا أن يدركها الأجل ونحن على هذه الأحوال السيِّئة، أو يأتينا الموت بغتة قبل التوبة، أو تخذلنا أعمالنا وسيِّئاتنا في لحظات الوداع الأخيرة لهذه الحياة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[٣].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[٤].كم ألهتْنا الدنيا عن أداء صلواتنا، وحالتْ بيننا وبين القيام بعباداتنا، وأوقعتْنا في ارتكاب المحارم وفعْل الفواحش وأكْل الحرام، طمعًا في متاعها الزائل وغرورها الذاهب. ماذا لو علمنا أنَّه لم يبقَ من أعمارنا شيءٌ؟ وماذا لو داهمَنا الموت بغتة فبِتْنا الليلة في قبورنا؟ وماذا لو انتقلنا في لحظة واحدة من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، ومن هذه الحياة إلى حياة القبر والبرزخ؟ ماذا سنقول لربِّنا عن تفريطنا وتقصيرنا؟ وكيف سنقابل الله ونحن مُلوَّثون ومُلطَّخون بمعاصينا وآثامنا؟ وكيف سنعتذر في يومٍ لا ينفع فيه الاعتذار ولا تُجدي فيه الحسرات ولا تنفع فيه الأنَّات والآهات؟

---

(١) المدَّثر ٣٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٦) برقم (٦٥٠٧) كتاب الرقاق. باب مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٦٥) برقم (٢٦٨٣) كتاب باب مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه، ومَن كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لقاءه.

(٣) الحشر ١٨- ٢٠.

(٤) المنافقون ٩- ١١.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾(١).

دخل يزيد الرقاشي الزاهد الواعظ على عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين- رحمه الله- فقال عمر بن عبد العزيز: يا يزيد؛ عِظْني، فقال: يا أمير المؤمنين؛ اعلمْ ما أنت أوَّل خليفة تموت؛ فبكى عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- وقال: زدْني يا يزيد، فقال يزيد: يا أمير المؤمنين؛ ليس بينك وبين آدم إلَّا أبٌ ميّتٌ، فبكى عمر وقال: زدْني، فقال: ليس بينك وبين الموت موعِدٌ، فبكى عمر بكاءً شديدًا وقال: زدْني، فقال له: يا أمير المؤمنين؛ ليس بين الجنَّة والنَّار منزِلٌ، فسقط عمر- رحمه الله- مغشيًا عليه(٢).

ويُحكى أنَّ ميمون بن مهران لقي الحسن البصري المعروف بزهده وورعه فقال له ميمون: قد كنتُ أحبُّ لقاءك؛ فعظْني، فقرأ عليه الحسن البصري قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾(٣) فقال: عليك السلام أبا سعيد، لقد وعظتَ فأحسنتَ الموعظة(٤).

كما بيَّن الله سبحانه وتعالى أنَّ الناس يوم القيامة يحملون أوزارهم على ظهورهم، وكلَّ إنسانٍ منهم يحمل طائره في عنقه، فيأتي بكلِّ أعماله فيجد صالحها وسيِّئها ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾(٥)، لكنَّ أهل الجنَّة الذين يتجاوز الله عن سيِّئاتهم؛ يجدون تلك السيِّئات قد مُحيتْ وعُوِّضتْ بالحسنات التي عملوها، فيسترهم الله بستره الجميل، والله يبسط كنفه على عبده المؤمن، فيقول: أتذكر يوم كذا إذ فعلتَ كذا، كنتُ قد نهيتُك عنه؟ فيقول: نعم يا ربِّ! وكنتُ قد نسيتُ، فيقول: لكنَّني لم أنسه، فيقول: إنِّي سترتُك به في الدنيا فلن أفضحك به يوم القيامة(٦).

---

(١) الزمر ٥٤- ٥٦.

(٢) رواه البيهقي في الزهد الكبير (ص ٢١٦) برقم (٥٥١). كتاب الزهد الكبير، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، المحقِّق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٦ م.

(٣) الشعراء ٢٠٥-٢٠٧.

(٤) يُنظَر: سراج الملوك (ص ٢٧). سراج الملوك، المؤلف: أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: ٥٢٠ هـ)، الناشر: من أوائل المطبوعات العربية- مصر، تاريخ النشر: ١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م.

(٥) آل عمران ٣٠.

(٦) بهذا المعنى رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٢٨) برقم (٢٤٤١) كتاب المظالم والغصب. باب قول الله تعالى: {ألا لعنة الله على الظالمين} ولفظه:" إنَّ الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرفُ ذنب كذا، أتعرفُ ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنَّه هلك، قال: سترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتاب حسناته، وأمَّا الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: {هؤلاء الذين كذبوا على ربِّهم ألا لعنة الله على الظالمين} هود ١٨".
ورواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٢٠) برقم (٢٧٦٨) كتاب التوبة. باب قبول توبة القاتل وإن كثُر قتلُه.



فأولئك الذين يسترهم الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة، وفي المقابل يُفتضَح آخرون الفضيحة العظيمة على رؤوس الملأ، كما صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال:" إذا جَمع اللَّهُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ يَومَ القِيامَةِ؛ يُرْفَعُ لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ، فقِيلَ: هذِه غَدْرَةُ فُلانِ بنِ فُلان" رواه مسلم(١).

ومعنى كونها رهينة بما كسبت أي: أنَّها تأتي حاملة له تحمله بكامله، فلا يفوت منه شيء؛ فهذا الموقف من المواقف العظيمة التي قال تعالى فيها حكاية عن الذين كفروا عندما يرون الصُحُف: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾(٢)، هنا نريد أن نشير إلى أمرٍ أكَّد عليه القرآن الكريم وهو من المفاهيم القرآنية الراقية والتي هي أحد أصول العدالة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان، فثمَّة آيات عديدة- بالإضافة إلى هذه الآية- تُقرِّر أنَّ كلَّ إنسانٍ مُرتهنٌ بفعله، وليس من إنسانٍ يُحاسَبُ على فعْل غيره، فالنفس دون غيرها هي التي تُحاسَب على ما تفعل، فلا يُحاسَب على فعْلها قريبٌ لها أو صديقٌ، فلا يُحاسَب الأبُ بجريرة ابنه، ولا الرجلُ بجريرة زوجته، ولا الابنُ بجريرة أبيه، ولا الصديقُ بجريرة صديقه، كلٌ مرهونٌ بعمله، ولا يتعدَّى أثر عمله غيره، هذا قانونٌ إلهيٌّ، وسُنَّةٌ إلهيَّةٌ، ومظهرٌ من مظاهر العدالة الإلهية، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾(٣). هذه السُّنَّة الإلهيَّةُ قد نتجاوزها في كثيرٍ من شؤوننا، فالسلطان يُنكِّل بأسرةٍ كاملةٍ لأنَّ واحدًا من أبناء هذه الأسرة يراه مُجرِمًا في حقِّه، وأمَّا بقيَّة الأسرة فلا شأن لهم بذلك، ورغم ذلك فهذا السلطان يُنكِّل بأسرة كاملة، وقد يُنكِّل بقبيلة كاملة من أجل النكاية بواحدٍ- من أبناء هذه الأسرة أو من أبناء هذه القبيلة- هو بنظره مجرمٌ في حقِّه.

والخلاصة: أنَّ قلوبنا الغافلة، وأنفسنا الطامعة، وسيِّئاتنا الخاذلة، ودنيانا المضِلَّة؛ هي التي تُبعِدُنا من الله، وتُلهينا عن طاعة الله، وتُنسينا ذكْر الله، وتزيدنا بُعْدًا من الله، حتَّى ننسى لقاء الله، وننسى الحساب والجزاء.

إنِّي بُليتُ بأربعٍ ما سُلِّطُوا ... إلَّا لِشِدَّةِ شِقْوَتِي وَعَنَائِي
إبْلِيسُ وَالدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالْهَوَى ... كَيفَ الْخَلَاصُ وَكُلُّهُمْ أَعْدَائي(٤)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٣٥٩) برقم (١٧٣٥) كتاب الجهاد والسير. باب تحريم الغدر.
(٢) الكهف ٤٩.
(٣) الأنعام ١٦٤.
(٤) موارد الظمآن لدروس الزمان (٢/ ٤١٣).

٢٢ محرم

وفي أنفسكم أفلا تبصرون

يقول الإمام ابن القيم- رحمه الله- مُفسِّرًا تلك الآية السابقة:" لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه؛ دعاه خالقه وبارئه ومُصوِّره وفاطره من قطرة ماء؛ إلى التبصُّر والتفكُّر في نفسه، فإذا تفكَّر الإنسان في نفسه استنارتْ له آيات الربوبيَّة، وسطعتْ له أنوار اليقين، واضمحلتْ عنه غمرات الشَّكِّ والريب، وانقشعتْ عنه ظلمات الجهل، فإنَّه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلَّة التوحيد على ربِّه ناطقات، شاهدة لمدبِّره، دالَّة عليه، مُرشِدة إليه، إذ يجده مُكوِّنًا من قطرةِ ماءٍ؛ لحومًا مُنضَّدة، وعظامًا مُركَّبة، وأوصالًا مُتعدِّدة، مأسورة مُشدَّدة بحباله، العروق والأعصاب قد قمطتْ وشُدَّتْ وجُمِعَتْ بجلدٍ متينٍ، مُشتمِل على ثلاثمائة وستين مفصلًا ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحنٍ، وشُدَّتْ هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقًا للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمدِّ والضمِّ، والصنايع والكتابة.

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشَّم، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفُّس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسُها.

وجعل داخل بابَيِ السمع مُرًّا قاتلًا لئلَّا تلج فيها ما تخلص إلى الدماغ فتؤذيه، وجعل داخل بابَيِ البصر مالحًا لئلَّا تُذيبَ الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم، وجعل داخل باب الطعام والشراب حُلوًا ليسيغ به ما يأكله ويشربه فلا يتنغَّص به لو كان مُرًّا أو مالحًا.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء مُركَّبَينِ في أعلى مكانٍ منه، وفي أشرف عضوٍ من أعضائه طليعة له، وركَّب هذا النور في جزءٍ صغيرٍ جدًّا يُبصِر به السماء والأرض وما بينهما، وغشَّاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فوق بعض حماية له وصيانة وحراسة، وجعل على محلِّه غلقًا بمصراعين أعلى وأسفل، وركَّب في ذيل المصراعين أهدابًا من الشَّعر وقاية للعين وزينة وجمالًا، وجعل فوق ذلك كلِّه حاجبين من الشَّعر يحجبان العين من العَرَق النازل، ويتلقَّيان عنها ما ينصب من هناك، وجعل سبحانه لكلِّ طبقةٍ من طبقات العين شُغلًا مخصوصًا، ولكلِّ واحدٍ من الرطوبات مقدارًا مخصوصًا؛ لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلَّت المنافع والمصالح المطلوبة، وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة، ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والجبال، والعالم العلوي والسفلي، مع اتِّساع أطرافه وتباعد أقطاره، واقتضتْ حكمتُه سبحانه أن جعل فيها



بياضًا وسوادًا، وجعل القوّة الباصرة في السواد، وجعل البياض مُستقَرًا لها ومسكنًا، وزيّن كُلًّا منهما بالآخر، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدَّم، وجعلها سوداء؛ إذ لو كانت بيضاء لتفرّق النور الباصر فضعف الإدراك، فإنَّ السواد يجمع البصر ويمنع من تفرُّق النور الباصر، وخَلَقَ سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعًا وعشرين عضلة، لو نقصتْ عضلةٌ واحدةٌ لاختلَّ أمْرُ العين.

ولما كانت العين كالمرآة- التي إنَّما تنطبع فيها الصور إذا كانتْ في غاية الصقالة والصفاء- جعل سبحانه هذه الأجفان مُتحرِّكة جدًّا بالطبع إلى الانطباق من غير تكلُّف لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات، ولهذا لما لم يخلُقْ لعين الذُّبابة أجفانًا فإنَّها لا تزال تراها تُنظِّف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات.

وكما جعل سبحانه العينين مُؤدِّيَتَينِ للقلب ما يريانه فيوصلانه إليه كما تَريانه؛ جعلهما مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مُودَعٌ فيه من الحُبِّ والبغض، والخير والشر، والبلادة والفطنة، والزيغ والاستقامة، فيُستدَلُّ بأحوال العين على أحوال القلب، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة: وهي فراسة العين، وفراسة الأذن، وفراسة القلب، فالعين مِرآةٌ للقلب وطليعة ورسول. ومن عجيب أمرها أنَّها من ألطف الأعضاء وأبعدها تأثُّرًا بالحرِّ والبرد، على أنَّ الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثَّر بهما أكثر من تأثُّر العين على لطافتها، وليس ذلك إلَّا بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان، فإنَّها لو كانت مُتفتِّحة لم تتأثَّر بذلك تأثُّر الأعضاء اللطيفة.

ومن ذلك: الأذنان شقَّهما- تبارك وتعالى- في جانِبَي الوجه، وأودعهما من الرطوبة ما يكون مُعينًا على إدراك السمع، وأودعهما القوة السمعيَّة، وجعل سبحانه في هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات لتطول المسافة قليلًا، فلا يصل الهواء إلَّا بعد انكسار حِدَّته، فلا يصدمها وهلة واحدة فيؤذيها، وأيضًا لئلَّا يفجؤها الداخل إليها من الدبيب والحشرات، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الانعطافات؛ وقف هناك فسهُل إخراجُه.

وكانت العينان في وسط الوجه، والأذنان في جانِبَيْهِ؛ لأنَّ العينين محلُّ الملاحة والزينة والجمال، وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الإنسان، وأمَّا الأذنان فكان جعْلُهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلْف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن شماله سواء، فتأتي المسموعات إليهما على نسبة واحدة، وخَلَقَ العينين بغطاء والأُذُنين بغير غطاء، وهذا في غاية الحكمة؛ إذ لو كان للأُذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت، فلا يحصل إلَّا بعد ارتفاع الغطاء، والصوت عَرَضٌ لا ثبات له، فكان يزول قبل كشف الغطاء، بخلاف ما تراه العين، فإنَّه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء



وفتح العين. وجَعَلَ سبحانه الأذن عضوًا غضروفيًّا ليس بلحمٍ مُسترخٍ ولا عظم صلب، بل هي بين الصلابة واللين، فتُقبَل بلِينها وتُحفَظ بصلابتها، ولا تنصدع انصداع العظام، ولا تتأثَّر بالحرِّ والبرد والشمس والسموم تأثُّر اللحم؛ إذ المصلحة في بروزها لتتلقَّى ما يرِدُ عليها من الأصوات والأخبار"[١].

والخلاصة: أنَّه إذا تأمَّل الإنسان المؤمن وهو يستشعر قول الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[٢]؛ تُضيءُ قلبَه تلك الآياتُ الباهراتُ، وتسطعُ له أنوار اليقين، فيزداد إيمانُه بخالقه الذي أوجده على هذه الهيئة البديعة، وسوَّى خلقه فَعَدَّلَه بهذه الصورة الفريدة، ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾[٣]، وتظهر له عظمة الخالق بأنَّه سبحانه على كلِّ ما يشاء وما يريد قدير. وفي هذا يقول الشاعر؛ ولعلَّه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-:

دُوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تُبْصِرُ وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تَشْعُرُ
وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ[٤]

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٣٠٣ -٣٠٧). التبيان في أقسام القرآن، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقِّق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢) الذاريات ٢١.

(٣) النمل ٨٨.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٩/ ٢٦٥، بترقيم الشاملة آليًّا). والبيت الأوَّل عنده:
دَوَاؤكَ فيكَ وما تَشْعُرُ ... ودواؤكَ منكَ وما تبصرُ.
ولعل الشطر الثاني فيه خطأ، والمثبَت هو الصواب: وداؤك منك ..



٢٣ محرم

ادعونى أستجبْ لكم

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١).

وقال أيضًا: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(٢).

إنَّ الدعاء عبادة من أعظم العبادات، وقُربة من أجَلِّ القُربات، شأنه عند الله كبير، وأجره عند الله عظيم، به تُستمطَر الرحمات، وتُغفَر الزلات، وتُرفَع الدرجات، وتُدفَع البلايا، وتُجزَل العطايا، وبه يُرَدُّ القضاء، وتُستمطَرُ السماء.

والدعاء معناه إظهار الافتقار لله تعالى، والتبرُّؤ من الحَوْل والقوة، وقد جاءت النصوص الشرعيَّة مُبيِّنةً أمْرَ الله عزَّ وجلَّ لعباده بالدعاء، وعِظم شأنه وفضْله، فهو من أعظم العبادات، بل هو العبادةُ نفسُها، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ– رضي الله عنه– عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾" رواه الترمذي(٣).

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين(٤).

والدعاء من أعظم أسباب دفْع البلاء قبل نزوله، ورفعه بعد نزوله، فعن عبد الله بن عمر– رضي الله عنه– أنَّ النبي ﷺ قال:" إِنَّ الدُّعاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نزلَ ومِمَّا لمْ يَنْزِلْ، فَعليكُمْ عِبادَ اللهِ بالدعاءِ" رواه الترمذي(٥).

---

(١) غافر ٦٠.

(٢) البقرة ١٨٦.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٢١١) برقم (٢٩٦٩) أبواب تفسير القرآن. باب: ومن سورة البقرة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ٤٦٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٧/ ١٥٥).

(٥) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٥٢) برقم (٣٥٤٨) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٨/ ٤٨).



والدعاء سببٌ لانشراح الصدر وتفريج الهمِّ وزوال الغمِّ، وهو مفزَع المظلومين، وملجأ المستضعَفين، ففي حديث معاذ- رضي الله عنه- قال ﷺ:"وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ" رواه البخاري ومسلم(١).

وقال ابن القيم في كتابه الداء والدواء:" والأدعية والتعوُّذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحدِّه فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعِدُ ساعِدٌ قويٌّ، والمانع مفقودٌ؛ حصلتْ به النكاية في العدو، ومتى تخلَّف واحدٌ من هذه الثلاثة تخلَّف التأثير"(٢).

واعلموا أنَّ أعجز الناس مَن عجز وترَكَ الدعاء، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" وإنَّ أعجزَ الناسِ مَن عجزَ عنِ الدعاءِ" أخرجه البخاري في الأدب المفرد(٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضى الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ" أخرجه الترمذي(٤).

وقال ابن القيم:" هذا يدلُّ على أنَّ رضاه في مسألته وطاعته، وإذا رَضِيَ تعالى فكلُّ خيرٍ في رضاه، كما أنَّ كلَّ بلاءٍ ومُصيبةٍ في غضبه(٥)، والدعاء عبادة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(٦)، فهو تعالى يغضب على مَن لم يسألْه.

واعلموا أنَّ استجابة الدعاء تتنوَّع، فإمَّا أن يُعْطَى العبد ما سأل، وإمَّا أن يُصْرَف عنه من السوء مثله، أو أن يُدَّخَر له في الآخرة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري- رضى الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:" ما مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ " أخرجه أحمد(٧).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٩) برقم (١٤٩٦) كتاب الزكاة. باب أخْذ الصدقة من الأغنياء وتُردُّ في الفقراء حيث كانوا. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٠) برقم (١٩) كتاب الإيمان. باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام.

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي= الداء والدواء (ص ١٥). الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار المعرفة- المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

(٣) الأدب المفرد (ص ٣٥٩). وصحَّحه الألباني موقوفًا ومرفوعًا كما في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٩٧).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٤٥٧) برقم (٣٣٧٣) أبواب الدعوات. باب منه. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٣٧٣).

(٥) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي= الداء والدواء (ص ١٨).

(٦) غافر ٦٠.

(٧) رواه أحمد في مسنده (١٧/ ٢١٣) برقم (١١١٣٣). والحديث صحَّحه الألباني كما في تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٢). تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

يقول الفاروق عمر- رضي الله عنه-:" إِنِّي لا أحمل همَّ الإجابة، ولكنِّي أحمل همَّ الدعاء، فإذا وُفِّق العبدُ للدعاء؛ فإنَّ الإجابة معه" [١]؛ لأنَّ هناك وعدًا ربانيًّا ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾[٢]؛ فإذا أراد اللهُ بعبده خيرًا وفَّقه للدعاء، فإذا لم يُوفَّق فمعنى ذلك أنَّ الله- سبحانه وتعالى- لم يُرِد به هذا الخير.

وأمَّا عدم العلم فإنَّ كثيرًا من الناس يظنُّون أنَّ الدعاء أمرٌ صعبٌ أو أنَّه شيءٌ مُعقَّدٌ يحتاج إلى ألفاظٍ مُحدَّدةٍ مُعيَّنةٍ فيمنعهم هذا من الدعاء.

سأل النبيُّ ﷺ يومًا أحد الصحابة:" ما تقول في صلاتك؟ فقال: يا رسول الله؛ إِنِّي أتشهَّدُ ثم أسألُ اللهَ الجنَّة وأعوذُ به من النَّار، فوالله ما أُحسِنُ دندنتك ولا دندنة معاذ" رواه ابن ماجه[٣].

والدندنة هو الصوت الخفي الذي يُسمَع ولا يُفهَم، مهما طال الدعاء، مهما كثرت الكلمات، فإنَّ المراد واحد، والمقصود واحد، والهدف واحد، نسعى لرحمة الله، ونرجو عفو الله، ونطمع في جنَّة الله، فالعبرة ليست بكثرة الكلمات، وليست العبرة ببلاغة العبارات وفصاحتها، إنَّما العبرة بما في القلب بما يريده الإنسان.

فهذا يونس- عليه السلام- حين دعا ربَّه- تبارك وتعالى- وهو في بطن الحوت، سمع صوته في السماء وهو في جوف البحار فماذا عساه قال؟ قال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٤]، كلمات قليلة، كلمات يسيرة، يقول عنها ﷺ:" فإنَّهُ لم يَدْعُ بها مُسلِمٌ رَبَّهُ في شَيءٍ قَطُّ إلَّا استَجابَ له "رواه الترمذي والنسائي[٥].

فعلى المسلم أن يتحرَّى أوقات الإجابة مثل يوم الجمعة، والثُّلُث الأخير من الليل، وفي الأسحار قُبيل الفجر، وبين الأذان والإقامة من كلِّ صلاةٍ، وفي أدبار الصلوات المكتوبات؛ فإنَّها أوقاتٌ تُرجَى فيها الإجابة بإذن الله، يقول النبي ﷺ:" إنَّ في الجمُعةِ ساعةً لا يُوافِقُها عَبدٌ مُسلِمٌ قائمٌ يُصلِّي يَسألُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ شيئًا إلَّا أعطاهُ إيَّاهُ " رواه النسائي[٦].

---

(١) ذكره ابن القيم في عددٍ من كتبه؛ منها: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي= الداء والدواء (ص ١٧).

(٢) غافر ٦٠.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٢٩٥) برقم (٩١٠) كتاب إقامة الصلاة والسُّنَّة فيها. باب ما يُقال بعد التشهُّد والصلاة على النبي ﷺ. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١/ ٥٢).

(٤) الأنبياء ٨٧.

(٥) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٢٩) برقم (٣٥٠٥) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٢٤٣) برقم (١٠٤١٧) كتاب عمل اليوم والليلة. ذِكْر دعوة ذي النُّون. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٨/ ٥).

(٦) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/ ٢٩١) برقم (١٧٦١) كتاب الجمعة. الساعة التي يُستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٤/ ٧٥). والحديث أصله في الصحيحين: رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٣) برقم (٩٣٥) كتاب الجمعة. باب الساعة التي في يوم الجمعة. ومسلم في صحيحه (٢/ ٥٨٣) برقم (٨٥٢) كتاب الجمعة. باب في الساعة التي في يوم الجمعة.

ويقول ﷺ أيضًا:" يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فيَقولُ: مَن يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له، مَن يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَن يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له؟" رواه البخاري(١).

وسُئلَ ﷺ: يا رسول الله؛ أيُّ الدعاءِ أسمعُ؟ (أي ما هي الأوقات التي يُسمَعُ فيها الدعاء أكثر؟) فقال ﷺ:" في جوف الليل الآخِر ودُبُر الصلوات المكتوبات" رواه الترمذي(٢).

وأخيرًا: إذا دعوتَ الله- سبحانه وتعالى- فاملأْ قلبَكَ يقينًا بأنَّه- سبحانه وتعالى- سيُجيبُ دعوتك لا محالة، قال ﷺ:" ادعوا اللهَ وأنتم مُوقِنونَ بالإجابةِ ، واعلموا أنَّ اللهَ لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ لاهٍ" رواه الترمذي(٣)؛ قلبٌ شاردٌ يدعو الله وهو في وادٍ آخَر، يرفع يديه إلى الله، وقلبُه عند الخلْق، لا يُستجاب لمثل هذا، إنَّما يُستجاب لمن توجَّه بيده ولسانه وقلبه إلى الله بيقين صادق.

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ(٤)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣) برقم (١١٤٥) كتاب التهجُّد. باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب الترغيب في الدعاء والذِّكْر في آخر الليل، والإجابة فيه.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥٢٧) برقم (٣٤٩٩) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٤٧) برقم (٩٨٥٦) كتاب عمل اليوم والليلة. ما يُستحَبُّ من الدعاء دُبُر الصلوات المكتوبات. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٤٩٩).

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥١٧) برقم (٣٤٧٩) أبواب الدعوات. باب بدون ترجمة. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٤٧٩).

(٤) لم أقف على قائلهما، وقد ذكرهما كثيرٌ من المعاصرين في رسائلهم. يُنظَر: البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج (٤٢/ ٤٧). البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج، المؤلف: محمد بن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، (١٤٢٦ - ١٤٣٦هـ).



٢٤ محرم

لو يعلمُ النَّاسُ ما في النِّداءِ والصَّفِّ الأوَّلِ

عن أبي هريرة- رضي الله عنه-: أنَّ رسول الله ﷺ قال:" لو يعلمُ النَّاسُ ما في النِّداء والصفِّ الأوَّل ثم لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوًا" رواه البخاري(١).

قال الإمام النووي:" معناه أنَّهم لو علموا فضيلة الأذان وقدره وعظيم جزائه، ثم لم يجدوا طريقًا يحصلونه بها؛ لاقترعوا في تحصيله"(٢).

قال الإمام القرطبي- رحمه الله-:" واعلمْ أنَّ الأذان على قِلَّة ألفاظه مُشتمِلٌ على مسائل العقيدة؛ وذلك أنَّه- عليه الصلاة والسلام- بدأ بالأكبرية، وهي تتضمَّن وجود الله تعالى ووجوبه وكماله، ثم ثنَّى بالتوحيد، ثم ثلَّث برسالة رسوله، ثم ناداهم لِما أراد مِن طاعته، ثم ضمن ذلك بالفلاح، وهو البقاء الدائم، فأشعر بأنَّ ثَمَّ جزاء، ثُمَّ أعاد ما أعاد توكيدًا"(٣).

ولذا عظُمَ ثوابُ المؤذِّنين عند الله تعالى، وجاءت الأحاديث والآثار الكثيرة في فضْل وظيفتهم، وأنَّها من أعظم الوظائف ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٤). قالت عائشة- رضي الله عنها-: هو المؤذِّن إذا قال: حيَّ على الصلاة، فقد دعا إلى الله، وقال ابن عمر وعكرمة: إنَّها نزلت في المؤذِّنين(٥).

وفي حديث معاوية- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:" المؤذِّنون أطولُ الناس أعناقًا يوم القيامة" رواه مسلم(٦)، قال النضر بن شميل: إذا ألجم الناسَ العرقُ طالتْ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٦) برقم (٦١٥) كتاب الأذان. باب الاستهام في الأذان. ومسلم في صحيحه (١/ ٣٢٥) برقم (١٢٩) كتاب الصلاة. باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضْل الأوَّل فالأوَّل منها، والازدحام على الصَّفِّ الأوَّل، والمسابقة إليها، وتقديم أُولي الفضْل، وتقريبهم من الإمام.

(٢) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٥٨).

(٣) المفهِم لما أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ١٤). المفهِم لما أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه وقدَّم له: محيي الدين ديب ميستو- أحمد محمد السيد- يوسف علي بديوي- محمود إبراهيم بزال، الناشر: (دار ابن كثير، دمشق- بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق- بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٤) فصلت ٣٣.

(٥) تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٠).

(٦) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٢٩٠) برقم (٣٨٧) كتاب الصلاة. باب فضْل الأذان وهرب الشيطان من سماعه.



أعناقهم لئلَّا يغشاهم ذلك الكرب، وقيل: هم رؤساء الناس في الموقف؛ لأنَّ العرب تصف السادة بطول الأعناق[١].

ويأتي المؤذِّن يوم القيامة ومعه شهاداتٌ مِن كلِّ مَن سمِعَ أذانه، قال أبو سعيد الخدري- رضي الله عنه- لعبد الرحمن بن أبي صعصعة:" إنِّي أراك تُحِبُّ الغنم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو باديتك؛ فأذَّنْتَ للصلاة فارفعْ صوتك بالنداء، فإنَّه لا يسمع مدى صوت المؤذِّنِ جِنٌ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلَّا شهد له يوم القيامة. ثم قال أبو سعيد- رضي الله عنه-: سمعتُه من رسول الله ﷺ" رواه البخاري[٢].

كما يُغفَر له مع كلِّ أذانٍ يُؤذِّنه، كما قال رسول الله ﷺ:" يُغفَر للمؤذِّن مُنتهى أذانه، ويَستغفر له كلُّ رطبٍ ويابسٍ" رواه أحمد[٣].

والمؤذِّن أوَّل المصلِّين قدومًا إلى المسجد، والتبكير إلى الصلوات فيه من الأجر ما لا يخفى، ويتأتَّى للمؤذِّن إحسان الوضوء، والمحافظة على أذكاره، وأذكار الخروج من المنزل، وأذكار دخول المسجد، وأذكار الأذان، والمشي إلى المسجد بسكينة؛ ما قد لا يتأتَّى لغيره، وكلُّ هذه عبادات وقُربات لها أجرها وثوابها.

وإذا انتهى من الأذان، وقال ما بعده من أذكار، وصلَّى ما كُتِب له، ودعا، وقرأ ما تيسَّر من القرآن، وتلك عبادات أخرى، فإذا حضرت الإقامة وأقام الصلاة؛ كان ما قام به من عبادات سابقة مُهيِّئًا لأداء الفريضة على أكمل وجه، ومُعينًا له على الخشوع والتدبُّر؛ لأنَّ ما تقدَّم من عبادات سببٌ لطرد الشيطان ووساوسه.

علاوة على أنَّ الأذان والإقامة من أعظم أسباب الخشوع وطرد الوساوس والخطرات، وفي هذا يقول ابن الجوزي- رحمه الله-:" على الأذان هيبةٌ يشتدُّ انزعاج الشيطان بسببها؛ لأنَّه لا يكاد يقع في الأذان رياءٌ ولا غفلةٌ عند النطق به، بخلاف الصلاة؛ فإنَّ النفس تحضر فيها فيفتح لها الشيطان أبواب الوساوس"[٤].

---

(١) يُنظَر: المفهِم لما أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ١٥).

(٢) رواه البخاري في صحيح (١/ ١٢٥) برقم (٦٠٩) كتاب الأذان. باب رفْع الصوت بالنداء.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٦/ ٢٧) برقم (٩٩٣٥). ورواه أبو داود في سننه (١/ ١٤٢) برقم (٥١٥) كتاب الصلاة. باب رفْع الصوت بالأذان. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢/ ١٥).

(٤) كشف المشكِل من حديث الصحيحين (٣/ ٣٧٢). كشف المشكِل من حديث الصحيحين، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقِّق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن– الرياض.



وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال:" إذا نُودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراطٌ حتَّى لا يسمع التأذين" رواه البخاري(١)؛ ولأجل هذا نُهِي المسلم عن الخروج من المسجد بعد الأذان. قال ابن بطال:" لئلَّا يكون مُتشبِّهًا بالشيطان الذي يفرُّ عند سماع الأذان"(٢).

وصحَّ عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أنَّه قال:" لو أُطيقُ الأذان مع الخلافة لأذَّنتُ"(٣).

وقال ابن مسعود- رضي الله عنه-:" لو كنتُ مُؤذِّنًا ما باليتُ أن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد"(٤).

أمَّا عن الصَّفِّ الأوَّل فهو أفضل صفوف المصلِّين، وفيه فضْلٌ عظيمٌ؛ فينبغي للمصلي الحرص على أن يكون دائمًا في الصفِّ الأوَّل، ولا ينبغي لمن جاء مُبكِّرًا أن يتأخَّر عن الصَّفِّ الأوَّل إلَّا لعذر، وقد قال ﷺ:" تقدَّموا فأتمُّوا بي، ولْيأتمَّ بكم مَن بعدكم، ولا يزال قومٌ يتأخَّرون حتَّى يُؤخِّرَهم الله" رواه مسلم(٥)؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: مَن جاء أوَّل الناس وصَفَّ في غير الأوَّل؛ فقد خالف الشريعة؛ ومَن ترك الصَّفَّ الأوَّل فقد حرَم نفسه خيرًا كثيرًا(٦).

والحفاظ على الصَّفِّ الأوَّل يستلزم التبكير في الذهاب إلى المسجد؛ لِما يترتب عليه من الفوائد، ومنها: إدراك الصَّفِّ الأوَّل، وإدراك الصلاة من أوَّلها، وأداء النافلة، وقراءة القرآن، وحصول استغفار الملائكة له، وأنَّه لا يزال في صلاةٍ ما انتظر الصلاة، وغير ذلك.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٥) برقم (٦٠٨) كتاب الأذان. باب فضْل التأذين.

(٢) نص كلام ابن بطال:" لئلَّا يشبه فعل الشيطان فى هروبه لئلَّا يسمع النداء" شرح صحيح البخارى لابن بطال (٢/ ٢٣٥). شرح صحيح البخارى لابن بطال، المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩ هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد- السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٣) رواه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (١/ ٤٨٦) برقم (١٨٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٠٤) برقم (٢٣٤٥). المصنف، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١ هـ)، المحقِّق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، يُطلَب من: المكتب الإسلامي— بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

(٤) رواه أبو نعيم في الصلاة (ص ١٥٥) برقم (١٨٧)؛ والفسوي في مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي (ص ٧٠). الصلاة المؤلف: أبو نعيم الفضل بن عمرو بن حماد بن زهير بن درهم القرشي التيمي بالولاء الملائي، المعروف بابن دُكَيْن (المتوفى: ٢١٩ هـ)، المحقِّق: صلاح بن عايض الشلاحي، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة / السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م. مشيخة يعقوب بن سفيان الفسوي، المؤلف: يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، أبو يوسف (المتوفى: ٢٧٧هـ)، المحقِّق: محمد بن عبد الله السريع، الناشر: دار العاصمة— الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٣٢٥) برقم (٤٣٨) كتاب الصلاة. باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضْل الأوَّل فالأوَّل منها، والازدحام على الصَّفِّ الأوَّل، والمسابقة إليها، وتقديم أُولِي الفضْل، وتقريبهم من الإمام.

(٦) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٦٢).



والمقصود بالصَّفِّ الأوَّل كما بيَّنه الحافظ ابن حجر في الفتح بقوله: والمراد به ما يلي الإمام مُطلَقًا، وقيل: أوَّلُ صفٍّ تامٍّ يلي الإمام؛ لا ما تخلَّله شيءٌ كمقصورة، وقيل: المراد به مَن سبق إلى الصلاة ولو صلَّى آخِر الصفوف، قاله ابن عبد البَرِّ: واحتجَّ بالاتِّفاق على أنَّ مَن جاء أوَّل الوقت ولم يدخل في الصَّفِّ الأوَّل فهو أفضل ممَّن جاء وزاحم إليه. ولا حجَّة له في ذلك كما لا يخفى. قال النووي: القول الأوَّل هو الصحيح المختار، وبه صرَّح المحقِّقون، والقولان الآخران غلطٌ صريحٌ"[١].

والخلاصة: أنَّ فضْل الأذان والصَّفِّ الأوَّل فضْلٌ عظيمٌ، لا يعلم الناسُ فضْلهما حقَّ المعرفة، ولو علموا ذلك لتنافسوا وتزاحموا وتقاتلوا عليهما، حتَّى لا يجدوا سبيلًا لفضِّ النزاع سوى اللجوء للاقتراع بينهم.

إِذَا مَا دَعَا دَاعِي الْهُدَى فِي الْمَآذِنِ ... وَجَالَ صَدَاهُ فِي الْقُرَى وَالْمَدَائِنِ
أُصَلِّي عَلَى الْمُخْتَارِ طَهَ وَصَحْبِهِ ... نَبِيِّ الْوَرَى الْمَنْصُورِ صَافِي الْمَعَادِنِ
إِذَا شَدَّنِي صَوتُ الْأَذَانِ بِسِحْرِهِ ... فَمَا عَادَ يُغْرِينِي هِزَارُ الْجَنَائِنِ
إِذَا مَا سَرَى صَوتُ الْمُؤَذِنِ غَطَّنِي ... بِنُورٍ شَفَانِي مِنْ جَمِيعِ الْبَرَاثِنِ
فَيَا مَئْذَنَاتٍ فِي الْمَسَــــاجِدِ أَذِّنِي ... وَهَيِّجِي بِلَمْـحِ النُّورِ فَيْضَ كَوَامِنِي[٢]

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ٢٠٨).

(٢) لم أقف على ناظمها.



٢٥ محرم

خيرُ الزَّاد

قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[١]، فالتقوى هي أفضلُ زادٍ يتزوَّد به العبد .وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[٢].

فالتقوى هي وصيةُ الله عزَّ وجلَّ للبشر أجمعين؛ وذلك لأنَّها جامعةٌ لكلِّ خيرٍ، فالذي يتَّقي الله سبحانه وتعالى سيُوحِّدُه وحده ولن يُشرك به شيئًا، سيبحث عمَّا يُرضيه سبحانه فيأتيه، وعمَّا يُغضِبه سبحانه فيجتنبه، فهي خيرُ وصيةٍ من ربِّ البريَّة، يُرشِد عبادَه لما فيه فلاحُهم ونجاحُهم في الدنيا والآخرة.

وجعل الله التقوى هي ميزان الحقِ الذي يُوزَن به الناس، لا ميزان الحَسَب والنَّسب والمال والشُّهرة؛ فقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣].

والتقوى أجملُ لباسٍ يتزيَّن به العبدُ، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[٤].

وهي سببٌ لمحبة الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

وبها ينال العبدُ معيَّةَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٦].

قال رسول الله ﷺ:" اتَّقِ الله حيثُما كنتَ، وأَتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخَالقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ" رواه الترمذي[٧].

قال ابن القيم– رحمه الله–: ودَّع ابنُ عون رجلًا فقال:" عليك بتقوى الله؛ فإنَّ المتَّقِي ليس عليه وَحْشَة".

---

(١) البقرة ١٩٧.

(٢) النساء ١٣١.

(٣) الحجرات ١٣.

(٤) الأعراف ٢٦.

(٥) آل عمران ٧٦.

(٦) النحل ١٢٨.

(٧) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٥) برقم (١٩٨٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في معاشرة الناس. والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤/ ٤٨٧).



قال الثوري:" إنِ اتَّقيتَ اللهَ كفاكَ الناسَ، وإنِ اتَّقيتَ النَّاسَ لن يُغنوا عنكَ من الله شيئًا"[١].

وكان من دعاء النبي ﷺ:" اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها" رواه مسلم[٢].

واختلفَتْ أقوال العلماء في تعريف التَّقوى، ولكنَّها كلَّها تدورُ حولَ مفهومٍ واحدٍ؛ وهو:" أنْ يأخذ العبدُ وقايته مِن سخط الله عزَّ وجلَّ وعذابه؛ وذلك بامتثالِ المأمور، واجتناب المحظور".

قال الحافظُ ابن رجب:" وأصل التَّقوى: أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه، فتقوى العبدِ ربَّه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربِّه: مِن غضبه وسخطه وعقابه؛ وقايةً تقيه من ذلك؛ وهو فِعْلُ طاعته، واجتناب معاصيه"[٣].

وقال ابن القيم: التَّقوى حقيقتُها:" العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أَمَرَ اللهُ به إيمانًا بالأمْر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى اللهُ عنه إيمانًا بالنَّهي وخوفًا من وعيده"[٤].

وقال ابن مسعود- رضي الله عنه-:" حقُّ تقاته أن يُطاع فلا يُعصَى، ويُذكَر فلا يُنسَى، وأن يُشكَر فلا يُكفَر"[٥].

وقال أبو هريرة – رضي الله عنه- وقد سُئِل عن التقوى:" هل أخذتَ طريقًا ذا شوكٍ؟ قال: نعم، قال: كيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قَصرتُ عنه، قال: ذاكَ التقوى"[٦].

يقول الإمام السعدي- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٧]: "وأمَّا الزاد الحقيقي المستَمِرُّ نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه؛ فهو زاد التقوى الذي هو

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٥٤). الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٨٨) برقم (٢٧٢٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب التعوُّذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).

(٤) الرسالة التبوكية= زاد المهاجر إلى ربِّه (ص ١٣). الرسالة التبوكية= زاد المهاجر إلى ربِّه، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١ هـ)، المحقِّق: د. محمد جميل غازي، الناشر: مكتبة المدني- جدة.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٦) برقم (٣٤٥٥٣)؛ وأبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ٢٣٨).

(٦) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٢).

(٧) البقرة ١٩٧.



زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذَّة، وأجَلِّ نعيم دائم أبدًا، ومَن ترك هذا الزاد؛ فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكلِّ شرٍّ، وممنوع من الوصول إلى دار المتقين. فهذا مدحٌ للتقوى. ثم أَمَرَ بها أولي الألباب فقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة؛ اتقوا ربَّكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وترْكُها دليلٌ على الجهل وفساد الرأي"(١).

وقال ابن رجب:" أصل التَّقوى: أن يعلم العبدُ ما يتَّقي ثم يَتَّقي"(٢).

وذكر معروف الكرخي عن بكر بن خُنيس: كيف يكون مُتَّقيًا مَن لا يدري ما يتَّقي؟ ثم قال معروف: إذا كنتَ لا تُحسِنُ تتَّقي أكلتَ الرِّبا، إذا كنتَ لا تُحسِنُ تتَّقي لقيَتْكَ امرأةٌ ولم تغضَّ بصرك"(٣).

ولا يزال الشيطان يُهوِّن أمر المعصية ولو من الصغائر على العبد؛ حتَّى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف النادم أحسنَ حالًا منه، قال ﷺ:" إِيَّاكُم وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ" رواه أحمد(٤).

يقول العلامة ابن باز- رحمه الله- عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾(٥):" قال بعض السلف: هذه الآية أجمع آية في كتاب الله، وما ذاك إلَّا لأنَّ الله رتَّب عليها خير الدنيا والآخرة، فمَنِ اتَّقى الله جعل له مخرجًا من مضائق الدنيا ومضائق الآخرة، والإنسان في أشدِّ الحاجة، بل في أشدِّ الضرورة إلى الأسباب التي تُخلِّصه من المضائق في الدنيا والآخرة، ولكنَّه في الآخرة أشدُّ حاجة وأعظم ضرورة، وأعظم الكُربات وأعظم المضائق كُربات يوم القيامة وشدائدها، فمَنِ اتَّقى الله في هذه الدار فرَّج الله عنه كربات يوم القيامة، وفاز بالسعادة والنجاة في ذلك اليوم العظيم العصيب، فمَن وقع في كُربة من الكُربات فعليه أن يتَّقي الله في جميع الأمور، حتَّى يفوز بالفرج والتيسير، فالتقوى بابٌ لتفريج كُربة العُسر، وكُربة الفقر، وكُربة الظُّلم، وكُربة الجهل، وكُربة السيِّئات والمعاصي، وكُربة الشرك

---

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٩٢).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٢).

(٣) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٧/ ٤٦٧) برقم (٢٢٨٠٨). وصحَّحه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٢٧٦).

(٥) الطلاق ٢.



والكفر إلى غير ذلك، فدواء هذه الأمور وغيرها أن يتَّقي الله بترْك الأمور التي حرَّمها الله ورسوله، وبالتعلُّم والتفقُّه في الدين حتَّى يسلم من داء الجهل، وبالحذر من المعاصي والسِّيئات حتَّى يسلم من عواقبها في الدنيا والآخرة"[١].

والخلاصة: أنَّك ترى مِن الناس مَن يتَّقي الكفرَ وكبائر الذنوب، إلاَّ أنَّه لا يتورَّع عن الصغائر ولا يُكثِر من النوافل، فلا شكَّ أنَّه أقربُ للنَّجاة، إلاَّ أنَّه لم يأخُذ الجُنَّة الكاملةَ من النَّار، فلا بُدَّ أن يكون هناك من التقصير في الفرائض والوقوع في الصغائر التي يُخشَى من المداومة عليها التجرُّؤ على الكبائر، وليس له مِن نوَافل الطاعات واجتناب الشُّبُهات والمكروهات ما يكمل به تقوى العبد.

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ شَنِيعُ
لَوْ كَـــانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِـــبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[٢]

(١) مجموع فتاوى ابن باز (٢/ ٢٨٣- ٢٨٤).

(٢) ذكرها ابن القيم في عددٍ مِن كتبه، يُنظَر: روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين (ص ٢٦٦). وكذا ذكرها غيره. روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.



٢٦ محرم

وكونوا مع الصادقين

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(١).

فالصدقُ محمَدةٌ في الدنيا والآخرة، وعلامة التقوى، وسببٌ لتكفير السيِّئات، ورِفعة الدرجات، وكلُّ ذلك مجموعٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٢).

أمَّا يوم القيامة فتأمَّل قولَ الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾(٣).

ولقد كان الصِّدقُ عُنوانًا لقدوتنا وأُسوتنا محمَّدٍ ﷺ، فعُرِف به حتَّى قبل البعثة، ولُقِّب بالصادق الأمين، واشتُهِر بهذا بين الناس، ولما أُمِر بالجهر بالدعوة، وتبليغ الرسالة جمَع الناسَ وسألهم عن مدى تصديقهم له إذا أخبرهم بأمرٍ، فأجابوا قائلين:" ما جرَّبنا عليك إلَّا صدقًا" رواه البخاري(٤).

واستمرَّ على هذا المبدأ حتَّى تُوفِّي، لم يكذب كذبةً واحدة، بل كان الكذِبُ أبغضَ خُلُقٍ إليه، قالت عائشة- رضي الله عنها-:" ما كان مِن خُلُقٍ أبغضَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ من الكذبِ، ما اطَّلع على أحدٍ من ذلك بشيءٍ فيخرُجُ من قلبِه حتَّى يعلمَ أنَّه قد أحدث توبةً" أخرجه أحمد والترمذي(٥).

---

(١) التوبة ١١٩.

(٢) الزمر ٣٣-٣٥.

(٣) المائدة ١١٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١١١) برقم (٤٧٧٠) كتاب تفسير القرآن. باب {وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} الشعراء ٢١٤- ٢١٥، ألِنْ جانبك.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٤٢/ ١٠١) برقم (٢٥١٨٣). والحديث صحَّحه الألباني كما في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٨/ ٢٣٣). التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه، وشاذِّه من محفوظه، مؤلف الأصل: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله، علاء الدين الفارسي الحنفي (المتوفى: ٧٣٩هـ)، مؤلف التعليقات الحسان: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

تنبيه: الحديث لم أقف عليه في جامع الترمذي نسخة الشيخ أحمد شاكر، والظاهر أنَّه سقط من نسخة الشيخ، لكنَّه في نسخة الشيخ بشار عواد، سنن الترمذي، ت بشار (٣/ ٤١٦) برقم (١٩٧٣).



يقول ابنُ القَيِّمِ- رحمه الله-:" فَكُلُّ عَمَلٍ صالحٍ ظاهرٍ أو بَاطِنٍ فَمَنشَؤُهُ الصِّدقُ، وَكُلُّ عَمَلٍ فَاسِدٍ ظَاهِرٍ أو بَاطِنٍ فَمَنشَؤُهُ الكَذِبُ، وَاللهُ- تعالى- يُعَاقِبُ الكَذَّابَ بِأَن يُقعِدَهُ وَيُثبِّطَهُ عَن مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ، وَيُثِيبُ الصَّادِقَ بِأَن يُوَفِّقَهُ لِلقِيَامِ بمصالحِ دُنيَاهُ وَآخِرَتِهِ، فَمَا استُجلِبَتْ مَصَالحُ الدُّنيا وَالآخِرَةِ بِمِثلِ الصِّدقِ، وَلا مَفَاسِدُهما وَمَضَارُّهما بِمِثلِ الكَذِبِ"[١].

والصِّدقُ خُلُقٌ شَامِلٌ، يَدخُلُ فِيهِ الصِّدقُ في الأَقوَالِ وَالأَعمَالِ وَالأَحوَالِ، قال ابنُ القَيِّمِ- رحمه الله-:" فَالصِّدقُ في الأَقوَالِ استِوَاءُ اللِّسَانِ على الأَقوَالِ كاستِوَاءِ السُّنبُلَةِ على سَاقِهَا، وَالصِّدقُ في الأَعمَالِ استِوَاءُ الأَفعَالِ على الأَمرِ وَالمتَابَعَةِ كاستِوَاءِ الرَّأسِ على الجَسَدِ، وَالصِّدقُ في الأَحوَالِ استِوَاءُ أَعمَالِ القَلبِ وَالجَوَارِحِ على الإِخلاصِ وَاستِفرَاغِ الوُسعِ وَبَذلِ الطَّاقَةِ، فَبِذَلِكَ يَكُونُ العَبدُ مِنَ الذِينَ جَاؤُوا بِالصِّدقِ، وَبِحَسَبِ كَمَالِ هَذِهِ الأُمُورِ فِيهِ وَقِيَامِهَا بِهِ تَكُونُ صِدِّيقِيَّتُهُ"[٢].

فمِن الصِّدق في الأفعال أنَّ رجلًا جَاءَ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِن أَهلِ نَجدٍ ثَائِرَ الرَّأسِ يُسمَعُ دَوِيُّ صَوتِهِ وَلَا يُفقَهُ مَا يَقُولُ، حتَّى دَنَا فَإِذَا هُوَ يَسأَلُ عَنِ الإِسلامِ، فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ:" خمسُ صَلَواتٍ في اليَومِ وَاللَّيلَةِ، فقال: هَل عَلَيَّ غَيرُهَا؟ قال: لا إِلَّا أَن تَطوَّعَ، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَصِيَامُ رَمَضَانَ، قال: هَل عَلَيَّ غَيرُهُ؟ قال: لا إِلَّا أَن تَطوَّعَ، وَذكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قال: هَل عَلَيَّ غَيرُهَا؟ قال: لا إِلَّا أَن تَطوَّعَ، فَأَدبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلا أَنقُصُ، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفلَحَ إِن صَدَقَ" رواه البخاري[٣].

ومنه أيضًا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعرَابِ جَاءَ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ، ثم قال: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوصَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعضَ أَصحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَت غَزَاتُهُ غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعطَى أَصحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرعَى ظَهرَهُم، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيهِ، فقال: مَا هَذَا؟ قَالُوا: قَسمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قال: قَسَمتُهُ لَكَ، قَال: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعتُكَ، وَلَكِنِ اتَّبَعتُكَ عَلَى أَن أُرمَى إِلى هَا هُنَا- وَأَشَارَ إِلى حَلقِهِ- بِسَهمٍ فَأَمُوتَ فَأَدخُلَ الجَنَّةَ، فقال ﷺ: إِن تَصدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثم نَهَضُوا إِلى قِتَالِ العَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ إِلى النَّبِيِّ ﷺ يُحمَلُ قَد أَصَابَهُ سَهمٌ حَيثُ أَشَارَ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قال: صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ" رواه النسائي[٤].

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ١٣٦).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ٢٥٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٨) برقم (٤٦) كتاب الإيمان. باب الزكاة من الإسلام. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٠) برقم (١١) كتاب الإيمان. باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام.

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/ ٤٣٣) برقم (٢٠٩١) كتاب الجنائز. باب الصلاة على الشهداء. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٥/ ٩٧).

ومن الصدق في النِّيَّة قوله ﷺ:" مَن سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ مِن قَلبِهِ صَادِقًا بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِن مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ" رواه الترمذي[١].

ومن الصِّدق في المعاملات يأتي قوله ﷺ:" البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لم يَتَفَرَّقَا، فَإِن صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لهما فِي بَيعِهِمَا، وَإِن كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَت بَرَكَةُ بَيعِهِمَا" رواه البخاري[٢].

وعن رفاعةَ- رضي الله عنه- أنَّه خرج مع النبيِّ ﷺ إلى المصلَّى، فرأى الناس يتبايعون، فقال:" يا معشر التُّجار؛ فاستجابوا لرسول اللهِ ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال: إنَّ التجار يُبعَثون يومَ القيامةِ فجَّارًا إلَّا مَنِ اتَّقى الله وبرَّ وصدق" رواه الترمذي[٣].

ومِنَ الكذب المعاصر والمتجدِّد كذب التوقيع في سجلَّات الدوام حضورًا وانصرافًا، ناهيك عن أعذار التأخير، ومعاذير الاستئذان مقرونة بالأيمان، ومن الكذب كذب الباعة ومعارض السيارات وأهل العقارات وادِّعاء السوم فيها زعمًا أو كذبًا، وعموم إنفاق السلع بالحلف الكاذب الماحِق للبركة ، كذا ما يُسمِّيه البعضُ الكذبَ الأبيضَ؛ كيف والكذب كلُّه أسود، وكذب جلسات الزملاء ونكت الأصحاب؛ عن بهز بن حكيم عن أبيه عن رسول الله ﷺ:" وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ، لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ" رواه الترمذي[٤].

والخلاصة: أنَّهُ مَا مِن خَيرٍ وَلا بِرٍّ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ إلَّا وَمَنشَؤُهُ الصِّدقُ، وَمَا مِن شَرٍّ وَلا فُجُورٍ إلَّا وَبِدَايَتُهُ الكَذِبُ، وقد صَحَّ عنه ﷺ أَنَّهُ قال:" عَلَيكُم بِالصِّدقِ؛ فَإِنَّ الصِّدقَ يَهدِي إلى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهدِي إلى الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُم وَالكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهدِي إلى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إلى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّابًا" رواه مسلم[٥].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٧) برقم (١٩٠٩) كتاب الإمارة. باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى. والترمذي في جامعه (٤/ ١٨٣) برقم (١٦٥٣) أبواب فضائل الجهاد. باب ما جاء فيمن سأل الشهادة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٨) برقم (٢٠٧٩) كتاب البيوع. باب إذا بيَّن البيِّعان ولم يكتما ونصحا. ومسلم في صحيحه (٣/ ١١٦٤) برقم (١٥٣٢) كتاب البيوع. باب الصدق في البيع والبيان.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٥٠٧) برقم (١٢١٠) أبواب البيوع. باب ما جاء في التُّجَّار وتسمية النبي ﷺ إيَّاهم. والحديث ضعَّفه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣/ ٢١٠).

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ٢٤٤) برقم (٢٠٠٤٦)، وأبو داود في سننه (٤/ ٢٩٨) برقم (٤٩٩٠) كتاب الأدب. باب في التشديد في الكذب باللفظ المذكور. ورواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٥٧) برقم (٢٣١٥) أبواب الزهد. باب فيمن تكلَّم بكلمةٍ يُضحِك بها الناس. ولفظه: «ويلٌ للذي يُحدِّث بالحديث ليُضحِك به القوم فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له» والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ٤٩٠).

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٥) برقم (٦٠٩٤) كتاب الأدب. باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} التوبة: ١١٩، وما ينهى عن الكذب. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٣) برقم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة والآداب. باب قُبْح الكذب وحُسْن الصدق وفضْله.

وفي هذا يقول القائل:

لَعَضُّ جِيفَةِ كَلْبٍ خَيرُ رَائِحَةٍ   مِن كِذبةِ المرْءِ فِي جدٍّ وَفِي لَعِبِ
لَا يَكـــذبُ المرءُ إلَّا مِن مَهَانَتِهِ   أَو عَادَةِ السُّـوءِ أَو مِن قِلَّةِ الأَدَبِ[١]

(١) ذكره في الدر الفريد وبيت القصيد (١١/ ٢٥٠). الدر الفريد وبيت القصيد، المؤلف: محمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩ هـ - ٧١٠ هـ)، المحقِّق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٢٧ محرم

وقولوا للناس حُسْنًا

قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾[١]. وقال أيضًا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾[٢].

فهذا أمْرٌ من الله تعالى أن نقول للناس حُسنًا، وقد أمر نبيَّه ﷺ كذلك أن يَقُول هو ومن معه الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وما قال: الذي هو حسن، بل قال: التي هي أحسن. أفعل تفضيل. فينبغي على المسلم أن يختار أحسن الكلمات وأجمل العبارات عندما يريد أن يتكلَّم مع الناس، الكبير والصغير، القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم، فتتكلَّم مع الجميع بكلام ليس فيه سخرية ولا استهزاء، ولا تكبُّر ولا تحقير، ولا طعن في الآخرين ولا لعن، ولا تتكلَّم بكلام فاحش أو بذئ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ" رواه الترمذي[٣].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ فهناك مَن يتكلَّم بكلام عادي لا يقصد به شيئًا، فينزغ الشيطان في قلب البعض ويقول له: أنت المقصود بهذا الكلام، يريد أن يُوقِع بين الناس، فكيف إذا كانت كلمة سيِّئة؟ لا شكَّ أنَّ النزغ يكون أكثرَ وأشدَّ ممَّا يُوقِع العداوة بين الناس ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾.

علينا أن نُفكِّر في كلامنا قبل أن يخرج من أفواهنا، فإذا خرج الكلام فلا نستطيع أن نردَّه مرَّة أخرى، فعلينا أن نستحضر أوامر ربِّنا ووصايا نبيِّنا ﷺ حيث يقول لنا:" مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ" رواه مسلم[٤].

فالبعض يهوى الكلام الجارح الذي لا يلتئم بسرعة.

جراحاتُ السنانِ لها التئامٌ　　　ولا يلتئمُ ما جَرَحَ اللِّسَانُ[٥]

---

(١) البقرة ٨٣.

(٢) الإسراء ٥٣.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٣٥٠) برقم (١٩٧٧) أبواب البر والصلة. باب ما جاء في اللعنة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤/ ٤٧٧).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١١) برقم (٦٠١٨) كتاب الأدب. باب مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذِ جاره. ومسلم في صحيحه (١/ ٦٨) برقم (٤٧) كتاب الإيمان. باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلَّا عن الخير، وكون ذلك كلِّه من الإيمان.

(٥) يُنظَر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٩/ ٢٢٢، بترقيم الشاملة آليًّا).



حدثتْ خصومةٌ بين أحد السلف ورجُلٍ فقال الرَّجُلُ: واللهِ إن قلتَ لي كلمةً قلتُ لك عشرًا، فقال له: واللهِ إن قلتَ لي عشر كلمات لا أردُّ عليك ولا بكلمة واحدة ، فهدأ الرجل واستحيى منه واعتذر، هذا أثر الكلام الطيِّب مع الناس.

وجاء رجلٌ إلى علي بن الحسين بن علي- رضي الله عنهم أجمعين- فقال له: إنَّ فلانًا قد آذاك ووقع فيك. فقال له: انطلقْ بنا إليه، فانطلَقَ معه، وهو يرى أنَّه سينتصر لنفسه، ويقتصُّ منه، ويردُّ له الصاع صاعين، فلمَّا أتاه قال له:" يا هذا؛ إن كان ما قلتَ فيَّ حقًّا فغفرَ اللهُ لي، وإن كان ما قلتَ فيَّ باطلًا فغفرَ اللهُ لك"[١].

ورُوِي عن الشعبي نفس الموقف إلَّا أنَّه قال للرجل: إن كنتَ صادقًا غفر اللهُ لي، وإن كنتَ كاذبًا غفر اللهُ لك[٢].

حتَّى إن كنتَ تدافع عن دينك فلا تنفعل، فالدفاع عن الدين يكون بالقول الحسن بل بالأحسن ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[٣].

لقد دخل الملايين من الناس في دين الله أفواجًا ومنهم مسلمو إندونيسيا وكذلك الهند والصين وغيرها من البلدان بسبب الأخلاق الإسلاميَّة.

كتبتْ مُهندِسة يهوديَّة من اليمن مقالًا تقول فيه: إنَّ بعض أصدقائها يدعونها إلى الإسلام وأرسلوا لها قصَّة النبي ﷺ مع اليهودي الذي كان يؤذيه، فلمَّا مرض اليهودي زاره النبي ﷺ، فكانت الزيارة سببًا في دخوله الإسلام، فتقول: إنَّ أخلاق نبيِّكم أغرتْ ذلك اليهودي وجعلتْه يدخل الإسلام، أمَّا أنتم فبماذا تُغرونني لكي أدخل الإسلام، وأنتم يذبح بعضُكم بعضًا، ويُكفِّر بعضُكم بعضًا، ويشتم بعضُكم بعضًا، وبأسُكم بينكم شديدٌ؟!

وها هو عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- يعظ ابنه فيقول له:" يا بُنيَّ؛ إنَّ البِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ؛ وجه طليق، وكلام لَيِّن"[٤].

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٣٥٤). صفة الصفوة، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ)، المحقِّق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م.

(٢) يُنظَر: المجالسة وجواهر العلم (٣/ ١٦٤). المجالسة وجواهر العلم، المؤلف: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣ هـ)، المحقِّق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين- أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت- لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩ هـ.

(٣) النحل ١٢٥.

(٤) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق (ص ٦٤). مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧ هـ)، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، الناشر: دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.



وخيرٌ منه كلامُ ربِّنا تبارك وتعالى الذي يقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[١].

والكلمة معيار سعادة الإنسان أو شقائه، فبكلمةٍ ينال العبد رضوان الله فيرفعه بها إلى أعلى الدرجات، وبكلمةٍ يسخط الله عليه فيهوي بها إلى أسفل الدركات، ففي حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّه ﷺ قال:" إنَّ العبد ليتكلَّم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإنَّ العبد ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في جهنَّم" رواه البخاري[٢].

فكم من كلمةٍ طيِّبةٍ كتب الله بها الرضوان: تدفع عن مسلمٍ أذى، أو تنصر مظلومًا، أو تُفرِّج كُربة، أو تُعلِّم جاهلًا، أو تُذكِّر غافلًا، أو تهدي ضالًّا، أو ترأب صدعًا أو تُطفئ فتنة، وكم من مشاكل حُلَّتْ، وكم من صِلات قَوِيَتْ، وكم من خصومات زالتْ بكلمةٍ طيِّبةٍ.

وكم من كلمةٍ خبيثةٍ مزَّقتْ بين القلوب، وفرَّقتْ بين الصفوف، وزرعت الأحقاد والضغائن في النفوس، وخرَّبتْ كثيرًا من البيوت، وزرعت الكثير من الزور والفُحش والكَذِب والبهتان، فيهوي بها قائلُها إلى دركات النَّار:" وهل يَكُبُّ الناسَ في النَّار على وجوههم أو على مناخرهم إلَّا حصائدُ ألسنتهم؟" أخرجه الترمذي[٣].

والكلمة الطَّيِّبة واللين في الكلام سببٌ في دخول الجنَّة؛ قال رسول الله ﷺ:" إنَّ في الجنَّة غُرفًا يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، قالوا: لمن؟ قال: لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وصلَّى بالليل والناسُ نيامٌ"[٤].

والخلاصة: أنَّ الكلام مسطورٌ ومحفوظٌ، فقد أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ الملائكة تُحصي على الناس أقوالهم وتكتبها، فقال تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾[٥]. وقال أيضًا: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[٦].

---

(١) الفرقان ٦٣.
(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠١) برقم (٦٤٧٨) كتاب الرقاق. باب حفْظ اللِّسان.
(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم (٢٦١٦) أبواب الإيمان. باب ما جاء في حرمة الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ١١٦).
(٤) رواه البزار في مسنده= البحر الزخار (٢/ ٢٨١) برقم (٧٠٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٦٢) برقم (٥٠٩). وصحَّحه الألباني كما في صحيح الترغيب والترهيب (٥٦٠/١). صَحِيحُ التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتَبة المَعارف لِلنَشْرِ والتوزيْع، الرياض- المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.
(٥) الزخرف ٨٠.
(٦) ق ١٨.

وصدق الإمام الشافعي إذ يقول:

احفَظْ لِسَانَكَ أَيُّها الإِنسَانُ لَا يَلدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعبانُ

كَمْ فِي المِقابِرِ مِن قَتيلِ لِسـانِهِ كانَـتْ تَهابُ لِقاءَهُ الأَقرانُ[1]

(١) يُنظَر: الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت (ص ٣٢). الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت، المؤلف: الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البَنَّا، أبو علي، البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقِّق: عبد الله يوسف الجديع، الناشر: دار العاصمة- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٨ محرم

وإذا قلتُم فاعدلوا

يقول الله- جلَّ وعلا- في معرض وصاياه لعباده: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[(١)]، "ولو" للمبالغة في التزام قول العدل حتَّى وإن كان فيه مضرَّة لذي قُربى، له مكانته في النفس، حتَّى يقطع الإسلام الطريق أمام الأهواء والتعصُّبات التي تُؤدِّي للحيف وتمنع العدل﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

يقول الإمام ابن كثير- رحمه الله-:" وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾[(٣)]، وكذا التي تشبهها في سورة النساء الآية ١٣٥[(٤)]، يأمر تعالى بالعدل في الفِعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكلِّ أحدٍ، في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ حالٍ[(٥)].

ويقول الإمام السعدي- رحمه الله-:" ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ قولًا تحكمون به بين الناس، وتفصلون بينهم الخطاب، وتتكلَّمون به على المقالات والأحوال ﴿فَٱعْدِلُوا۟﴾ في قولكم، بمراعاة الصدق فيمن تُحِبُّون ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإنَّ الميل على مَن تكره بالكلام فيه أو في مقالته من الظلم المحرَّم. بل إذا تكلَّم العالِم على مقالات أهل البدع؛ فالواجب عليه أن يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وأن يُبيِّن ما فيها من الحقِّ والباطل، ويعتبر قُربها من الحقِّ وبُعدها منه. وذكر الفقهاء أنَّ القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظه ولفظه"[(٦)].

فالمنصفون فقط هم الذين يذكرون المرء بما فيه من خيرٍ أو شرٍّ، ولا يبخسونه حقَّه ولو كان الموصوف مُخالِفًا لهم في الدين والاعتقاد أو في المذهب والانتماء، فكيف إذا كان مِن إخواننا وعلمائنا ممَّن لا نتَّهمهم في عقيدتهم أو سلوكهم؟

---

(١) الأنعام ١٥٢.

(٢) الأنعام ١٥٢.

(٣) المائدة ٨.

(٤) يريد قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، وحصل هنا قلبٌ في تفسير ابن كثير: فقوله تعالى ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إنَّما هي في النساء وليست في المائدة، وفي التفسير في النسخة المطبوعة أنَّها في المائدة وهو خطأ. فليتنبه. والله أعلم.

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٥).

(٦) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٨٠).



قال ابن رجب:" والمنصف مَن اغتفر قليلَ خطأِ المرءِ في كثيرِ صوابِهِ"[١].

وقال الذهبي:" ونُحِبُّ السُّنَّة وأهلها، ونُحِبُّ العالِمِ على ما فيه من الاتِّباع والصفات الحميدة، ولا نُحِبُّ ما ابتدع فيه بتأويلٍ سائغٍ، وإنَّما العبرة بكثرة المحاسن"[٢].

وقال ابن القيم:" فلو كان كلُّ مَن أخطأ أو غلط؛ تُرِكَ جملةً وأُهدرتْ محاسنُه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطَّلت معالمها"[٣]، وكما قال شيخ الإسلام:" الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية"[٤].

وهكذا منهج القرآن والسُّنَّة، فكتاب الله ينصف أهل الكتاب: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾[٥]، ورسول الله ﷺ ينصف حاطب بن أبي بلتعة- رضي الله عنه- وقد ارتكب الخيانة العُظمى بإفشاء أسرار الدولة، فيقول لعمر بن الخطاب- رضي الله عنه-:" إِنَّه شَهِدَ بَدْرًا وما يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ " رواه البخاري[٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" ومن سلك طريق الاعتدال عظَّم مَن يستحقُّ التعظيم، وأحبَّه ووالاه، وأعطى الحقَّ حقَّه، فيُعظِّم الحقَّ، ويرحم الخلْق، ويعلم أنَّ الرجُل الواحد تكون له حسنات وسيِّئات، فيُحمَد ويُذمُّ، ويُثاب ويُعاقَب، ويُحَبُّ مِن وجهٍ ويُبغَض مِن وجهٍ، هذا هو منهج أهل السُّنَّة والجماعة"[٧].

---

(١) قواعد ابن رجب (١/ ٤). تقرير القواعد وتحرير الفوائد [المشهور بـ «قواعد ابن رجب»]، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقِّق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٦). سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨ هـ)، المحقِّق: مجموعة من المحقِّقين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

(٣) مدارج السالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين (٢/ ٤٠).

(٤) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٤٩).

(٥) آل عمران ٧٥.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٤٩) برقم (٤٨٩٠) كتاب تفسير القرآن. باب {لا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء} المتحنة: ١. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٤١) برقم (٢٤٩٤) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم. باب مِن فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة.

(٧) منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٤/ ٥٤٣). منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشيعة القدريَّة، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨ هـ)، المحقِّق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



وقال أيضًا- رحمه الله-:" والكلام في النَّاس يجب أن يكون بعلمٍ وعدلٍ، لا بجهلٍ وظلمٍ كحال أهل البدع"(١).

والكلام مُؤاخَذٌ به المسلم، وما خرج على لسانك لا عودة له، ولا تنسَوا حديث النبي ﷺ لمعاذ بن جبل- رضي الله عنه- وفي آخره:" ألَا أُخبرُك بملاك ذلك كلِّه؟ قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: كُفَّ عليكَ هذا، وأشار إلى لسانه، قلتُ: يا نبيَّ الله؛ وإنَّا لمؤاخَذون بما نتكلَّم به؟ فقال: ثكلتْكَ أمُّك يا معاذ؛ وهل يَكُبُّ الناسَ في النَّار على وجوههم إلَّا حصائدُ ألسنتهم؟!" أخرجه الترمذي(٢).

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣)، وإنَّ العدل في الكلام هَيِّنٌ فيما ترغب فيه النفس، أمَّا فيما لا ترغب فيه أو تجد فيه شيئًا تكرهه أو تجد ضيقًا أو حرجًا عليها؛ فهناك الابتلاء والتمحيص.

وكلام المرء يُترجِم عن مجهوله، ويُبرهِن عن محصوله، واللِّسان معيارٌ أطاشَه الجهلُ، وأرجحَه العقلُ، وآفةُ القولِ ترْكُ العدل.

ولَلصَّمتُ خيرٌ مِن كلامٍ بمأثَمٍ ⁂ فكُنْ صامِتًا تسلَمْ وإنْ قُلتَ فاعدِلِ(٤)

وإنَّك لتجد الرجل الصالح المصلِّي الراكع الساجد؛ إذا حكم على بعض الناس لا يحكم إلَّا بالظلم والإجحاف، أمَّا الإنصاف فهو عزيزٌ بين الناس، وهذا الأمر مفطورٌ عليه أكثر الناس إلَّا من خالف هواه، فاسمع إلى الشعبي- رحمه الله- وهو يقول، وكأنَّه قد عرف الناس واختبرهم، فعرف معادنَهم وحقيقتهم، قال:" واللهِ لو أصبتُ تسعًا وتسعين مرَّةً وأخطأتُ مرَّةً واحدةً؛ لعدُّوا عليَّ خطئي"(٥) فالناس ينسون تلك المحاسن والفضائل لخطأٍ واحدٍ.

---

(١) منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٤/ ٣٣٧).

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ١٢) برقم (٢٦١٦) أبواب الإيمان. باب ما جاء في حرمة الصلاة. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ١١٦).

(٣) المائدة ٨.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٦/ ٢١١، بترقيم الشاملة آليًّا).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٠٨).



والخلاصة: أنَّ الإسلام يأمرنا بالعدل والإنصاف ولو بالقول، وجعل من علامات المنافق الفجور في الخصومة "وإذا خاصم فجر"[١] فتجد أحدهم إذا رضي عنك رفعك إلى أعلى عليين، فأكثرَ مِن ذِكْر فضائلك، وتغاضى عن عيوبك، وإذا غضب وسخط جعلك في أسفل سافلين، فأكثرَ مِن ذكْر عيوبك، وتغاضى عن فضائلك. لقد قال ربُّنا: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[٢]، والعدل في وصْف الآخرين يقتضي ذكْر المساوئ والمحاسن والموازنة بينهما، ولا أحد يسلم من الخطأ، فلا ينبغي أن تُدفَن محاسن المرء لخطأٍ، كما أنَّ الماء إذا بلغ القُلَّتَينِ لم يحمل الخبث.

ويُنسَبُ إلى الإمام الشافعي- رحمه الله- قوله:

وعينُ الرِّضَا عَن كُلِّ عيبٍ كليلةٌ   ولكنَّ عينَ السُّخطِ تُبدِي المسَاوِيَا[٣]

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٦) برقم (٣٤) كتاب الإيمان. باب علامة المنافق. ومسلم في صحيحه (١/ ٧٨) برقم (٥٨) كتاب الإيمان. باب بيان خصال المنافق.

(٢) الأعراف ٨٥.

(٣) يُنظَر: الأمثال المولدة (ص ٤٠٤). الأمثال المولدة، المؤلف: محمد بن العباس الخوارزمي، أبو بكر (المتوفى: ٣٨٣ هـ)، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، عام النشر: ١٤٢٤ هـ.



٢٩ محرم

يمحق الله الربا

يقول الله- جلَّ وعلا-: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[١].

قال قتادة:" وتلك علامة أهل الرِّبا يوم القيامة، بُعِثوا وبهم خبلٌ من الشيطان"[٢]. فهم يقومون يوم القيامة من قبورهم كالمجانين: كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ.

وتوعَّد اللهُ آكِلَ الرِّبا بوعيدٍ شديدٍ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٣]، وهذا وعيدٌ شديدٌ لكلِّ مُرابٍ عنيدٍ، قال ابن عبَّاس- رضي الله عنهما-:" يُقال يوم القيامة لآكِلِ الرِّبا: خُذْ سلاحَك للحرب- تهكُّمًا به-"[٤].

وعنه أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أنَّه قال:" لا يقبل اللهُ منه صدقةً، ولا جهادًا، ولا حجًّا، ولا صِلةً"[٥].

وقد استفاضت الأحاديث النَّبويَّة في التحذير من الرِّبا، ومنها قول النبي ﷺ:" الرِّبَا وَإِنْ كَثُرَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ تَصِيرُ إلى قُلّ" رواه أحمد وابن ماجه[٦].

وفي صحيح مسلم:" لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبا ومُوكِلَه وكاتِبَه وشاهِدَيْه، وقال:" هُمْ سَوَاءٌ"[٧].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ أنَّه قال:" لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا ومُوكِلَهُ وشاهِدَيْهِ وكاتِبَهُ" رواه النسائي[٨].

---

(١) البقرة ٢٧٥-٢٧٦.

(٢) نقله الطبري عنه كما في تفسير الطبري= جامع البيان (٥/ ٤٠).

(٣) البقرة ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) نقله الطبري عنه كما في تفسير الطبري= جامع البيان (٥/ ٣٩).

(٥) تفسير الثعلبي= الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٧/ ٤١٨).

(٦) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ٧٦٥) برقم (٢٢٧٩) كتاب التجارات. باب التغليظ في الرِّبا ولفظه:" ما أحدٌ أكثرَ من الرِّبا؛ إلَّا كان عاقبة أمره إلى قلَّة". وصحَّحه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٥/ ٢٧٩). وأمَّا اللفظ المذكور فرواه أحمد في مسنده (٦/ ٢٩٧) برقم (٣٧٥٤) وصحَّحه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٦٦٤).

(٧) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٨) كتاب المساقاة. باب لعْن آكِلِ الرِّبا ومؤكِله.

(٨) لم أقف عليه عند النسائي بهذا اللفظ، وإنما بلفظ: "لَعَنَ رسولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبا، وموكِلَه، وكاتِبَه، وشاهِدَيْه" السنن الكبرى للنسائي (٨/ ٣٤١) برقم (٩٣٣٦) كتاب الزينة. وذكر اختلاف عبيد الله بن مرة والشعبي على الحارث في هذا الحديث.



وقال ﷺ:" مَا ظهرَ في قومٍ الرِّبا والزِّنا إِلَّا أحلُّوا بأنفسِهِم عقابَ اللهِ- عزَّ وجلَّ-" رواه أحمد[١].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنَّه قال:" اجتنبُوا السَّبعَ الموبِقاتِ؛ وذكر منهُنَّ: وأَكْلَ الرِّبا" رواه البخاري[٢].

والرِّبا في اصطلاح الفقهاء يتناول أمرين في الجملة:

الأوَّل: ربا الجاهلية "ربا القرض": وهو الزِّيادة في الدَّيْن مقابل تأجيل المدَّة، سواء اشتُرِطت الزيادة عند حلول الأجل أو في بداية الأجل.

فيحرُم على المرء أن يقترض مبلغًا من المال على أن يرُدَّ أكثر منه، سواء كان الاقتراض من بنك أو غيره، فالقرضُ عقدُ إرفاقٍ وإحسانٍ، واشتراطُ ردِّ زيادة عليه؛ ربا مُحَرَّمٌ، واستغلالٌ سيِّءٌ، وكلُّ قرضٍ جرَّ نفعًا فهوَ رِبا.

والثاني: ربا البُيوع وهو نوعان:

الأوَّل: ربا الفضْل: وهو الزيادة في أحد البدلَينِ الربويَّيْنِ المتَّفقَينِ جنسًا؛ كأن يبيع صاعًا من البُرِّ بصاعين منه، فهذا حرامٌ، أو مائة مثقال من الذهب بمائة وعشرين، وإن اختلفا في الجودة.

وقد دلَّت الأحاديث الصحيحة على هذا، فقد قال ﷺ:" الذَّهبُ بالذَّهبِ، والفضَّةُ بالفضَّةِ، والبُرُّ بالبُرِّ، والشَّعيرُ بالشَّعيرِ، والتَّمرُ بالتَّمرِ، والمِلحُ بالمِلحِ، مِثلًا بِمِثلٍ، وسواءً بسواءٍ، يدًا بِيَدٍ، فإذا اختلفتْ هذهِ الأصنافُ؛ فبيعوا كيفَ شئتم إذا كان يدًا بيدٍ" رواه مسلم[٣].

النوع الثاني: ربا النَّسِيئَة: يعني تأخير القبض عند مبادلة الربوي بالربوي.

مثال ذلك: بُرٌّ ببُرٍّ بعد شهر، أو ريال بريالين بعد شهر مثلًا، وقد يجتمع ربا الفضْل مع ربا النسيئة في مثل هذه الحالة، وهي: مائة ريال بمائة وعشرة بعد شهر مثلًا.

قال النبي ﷺ:" لا تبيعوا الدينارَ بالدينارينِ، ولا الدِّرهمَ بالدرهمينِ" رواه مسلم[٤].

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٣٥٨) برقم (٣٨٠٩) ولفظه:" ما ظهر في قومٍ الرِّبا والزِّنا؛ إلَّا أحلُّوا بأنفسهم عقاب الله عزَّ وجلَّ". والحديث حسَّنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩٨٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠) برقم (٢٧٦٦) كتاب الوصايا. باب قول الله تعالى: {إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلْمًا إنَّما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا} النساء: ١٠، ومسلم في صحيحه (١/ ٩٢) برقم (٨٩) كتاب الإيمان. باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢١١) برقم (١٥٨٧) كتاب المساقاة. باب الصرْف وبيع الذهب بالوَرِقِ نقدًا.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٠٩) برقم (١٥٨٥) كتاب المساقاة. باب الرِّبا.



وجاء بلالٌ بتمرٍ بُرْنِيّ- جيِّد- فقال له رسول الله ﷺ:"من أين هَذا؟ فقال بلال: تمرٌ كان عندي رديء؛ بعتُ منه صاعَين بصاعٍ لِمطعَم النَّبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك:" أوَّهْ، عينُ الرِّبَا، لا تفعلْ، ولكن إذا أردتَ أن تشتريَ فبِعْهُ ببيعٍ آخرَ، ثمَّ اشترِ بِهِ" رواه البخاري(١).

وعليه فيحرُمُ بيعُ الذهب بالذهب مع الزيادة، ويجوز بيع الذهب بالفضة، ولو زاد أحدهما على الآخر، وكذلك التمر بالبُرِّ لكن بشرط التقابُض في مكان البيع قبل التَّفرُّق.

ومن أغلظ أنواع الرِّبا: ما تفعله كثيرٌ من البنوك من القرض بفائدة، وكذلك ما تعطيه لعملائها من فوائد بنكيَّة، وهي الرِّبا بعينه. فلْيحذرِ المسلمُ من التورُّط في معاملاتٍ مشبوهةٍ، ولْيتحرَّ لُقمة الحلال، لئلَّا ينبت جسمُه على سُحتٍ فيكون خاسرًا؛ دعاؤه مردودٌ، وإثمه مُضاعَفٌ، وهذا ما يفعله بعض الناس اليوم، وقد صدق رسول الله ﷺ حين قال:" ليأتينَّ على الناسِ زمانٌ لا يُبالِي المرءُ بما أُخِذَ المالُ؛ أمِن الحلالِ أم منَ الحرَامِ" رواه البخاري(٢).

وآكِلُ الرِّبا دعاؤُه مردودٌ، وباب الخير في وجهه مسدودٌ، وسوء الخاتمة تنتظره، وفي الحديث أنَّ رسول الله ﷺ ذكرَ الرجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغبَرَ، يمدُّ يديهِ إلى السَّماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وملبسُه حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرامِ، فأنَّى يُستجابُ لذلك" رواه مسلم(٣).

والرِّبا سببُ ما نُعانيه اليوم مِن مذلةٍ ومهانةٍ، فقد قال رسول الله ﷺ:" إذَا تبايَعتم بالعِينةِ، وأخذتُم أذنابَ البقرِ، ورضيتُم بالزَّرعِ، وتركتُم الجهادَ؛ سلَّط الله عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه، حتَّى ترجِعوا إلى دِينكم" رواه أبو داود(٤).

والرِّبا أيضًا سببُ العذاب الأليم في الآخرة، فعن سمرة بن جندب- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ:" رأيتُ الليلة رجُلَينِ أتَيَاني فأخرجاني إلى أرضٍ مُقدَّسةٍ، فانطلقنا حتَّى أتينا على نهرٍ من دمٍ فيه رجلٌ قائمٌ، وعلى وسط النَّهر رجلٌ بين يديه حجارةٌ، فأقبلَ الرَّجلُ الذي في النَّهر، فإذا أراد أن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٠٢) برقم (٢٣١٢) كتاب الوكالة. باب إذا باع الوكيل شيئًا فاسدًا؛ فبيعه مردودٌ. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٥) برقم (١٥٩٤) كتاب المساقاة. باب بيع الطعام مِثلًا بِمِثلٍ.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٩) برقم (٢٠٨٣) كتاب البيوع. باب قول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة واتَّقوا الله لعلكم تفلحون} آل عمران: ١٣٠.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣) برقم (١٠١٥) كتاب الزكاة. باب قبول الصدقة مِن الكسب الطَّيِّب.

(٤) رواه أبو داود في سننه (٣/ ٢٧٥) برقم (٣٤٦٢) أبواب الإجارة. باب في النهي عن العينة. والحديث صحَّحه الألباني لمجموع طرقه كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٤٢).



يخرجَ رَمى الرجلَ بحجرٍ في فِيهِ فَرُدَّ حيثُ كان، فجعلَ كُلَّما جاءَ ليخرجَ رمى في فيه بحجرٍ فيرجع كمَا كان، فقلتُ: مَن هذا؟ فقال: الذي رأيتَه في النَّهرِ آكِلُ الرِّبا" رواه البخاري[١].

والخلاصة: أنَّ الرِّبا من أكبر الكبائر، ويكفي أنَّ رسول الله ﷺ أعلن أمْرَ الرِّبا ووضْعه في أعظم مكان، وأعظم خطبة، وأكثرها رؤية مِن قِبَل الناس، خطبة شهدها مائة وأربعة وعشرون ألفًا من الصحابة، في حجَّة الوداع يوم النحر الأعظم، يوم العاشر من ذي الحجَّة، خطبهم خطبة عظيمة، فقال فيها:" إنَّ دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألَا كلُّ شيءٍ من أمرِ الجاهليَّة تحت قدمي موضوع، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ، وإنَّ أوَّل دمٍ أضع من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث، كان مُسترضِعًا في بني سعدٍ فقتلتْه هذيل، وربا الجاهليَّة موضوعٌ، وأوَّل ربًا أضع ربانا ربا عبَّاس بن عبد المطَّلب، فإنَّه موضوعٌ كلُّه" رواه الترمذي[٢].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٩) برقم (٢٠٨٥) كتاب البيوع. باب آكِل الرِّبا وشاهده وكاتبه وقوله تعالى: {الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلَّا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المسّ ..} الآية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٨٩) برقم (١٢١٨) كتاب الحج. باب حجَّة النبي ﷺ. والترمذي في جامعه (٥/ ٢٧٣) برقم (٣٠٨٧) أبواب تفسير القرآن. باب ومن سورة التوبة. والله أعلم.

٣٠ محرم

ويُربي الصدقات

يقول عزَّ مِن قائل: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[(١)] بعد الحديث عن الرِّبا؛ يأتي الحديث مباشرة عن الصدقة.

قال العلامة السعدي- رحمه الله-:"﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يُذهِبه ويُذهِب بركته ذاتًا ووصفًا، فيكون سببًا لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يُؤجَر عليه، بل يكون زادًا له إلى النَّار ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يُنمِّيها ويُنزل البركة في المال الذي أُخرِجتْ منه ويُنَمِّي أجر صاحبها، وهذا لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فإنَّ المرابي قد ظلَمَ الناس وأخَذَ أموالهم على وجه غير شرعي، فجُوزيَ بذهاب ماله، والمحسِنُ إليهم بأنواع الإحسان؛ ربُّه أكرمُ منه، فيُحسِن عليه كما أحسَنَ على عباده ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ لنعم الله، لا يُؤدِّي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شرِّهِ عبادُ الله ﴿ أَثِيمٍ﴾ أي: قد فعل ما هو سببٌ لإثمه وعقوبته"[(٢)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:" مَن تصدَّق بعدلِ تمرةٍ مِن كسبٍ طيّبٍ- ولا يقبل اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- فإنَّ اللهَ يقبلها بيمينه، ثم يُربِّيها لصاحبها كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّه- أي مهره- حتى تكون مثل الجبل" رواه البخاري[(٣)].

وقد وعد الله- سبحانه وتعالى- المنفِق بالخلف، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[(٤)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله ﷺ قال:" قال الله تعالى: أَنْفِقْ يا ابن آدم؛ أُنفِقْ عليك" رواه البخاري[(٥)].

---

(١) البقرة ٢٧٦.

(٢) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ١١٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٠٨) برقم (١٤١٠) كتاب الزكاة. باب الصدقة من كسبٍ طيّبٍ لقوله: {ويُربي الصدقات والله لا يُحبُّ كُلَّ كفَّارٍ أثيمٍ إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون} البقرة: ٢٧٦- ٢٧٧. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٢) برقم (١٠١٤) كتاب الزكاة. باب قبول الصدقة مِنَ الكسب الطَّيِّب وتربيتها.

(٤) سبأ ٣٩.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٦٢) برقم (٥٣٥٢) كتاب النفقات. باب فضْل النفقة على الأهل. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٩٠) برقم (٩٩٣) كتاب الزكاة. باب الحث على النفقة وتبشير المنفِق.



وكما جاء في حديث آخر عن النبي ﷺ:" مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا" رواه البخاري[١].

وجاءت النصوص لتؤكِّد أنَّ المال لا ينقص بالإنفاق بل يزيد، فها هو رسول الله ﷺ يَقُولُ:" ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ:

عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا؛ فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا؛ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ.

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا؛ فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ.

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا؛ فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ" رواه أحمد والترمذي[٢].

وحرَّم الإسلامُ الحسدَ في كلِّ شيءٍ إلَّا في أبواب الخير عامَّة ومنها باب الصدقة، فعن النبي ﷺ أنَّه قال:" لا حسدَ إلَّا في اثنتين: رجُلٍ آتاه اللهُ مالًا فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجُلٍ آتاه اللهُ حكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمها" رواه البخاري[٣].

وقد رُويتْ آثارٌ عن النبي ﷺ في فضْل الصدقة، منها: أنَّها تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئ الماءُ النَّارَ، وتَسُدُّ سبعين بابًا من السوء، وأنَّ البلاءَ لا يتخطَّى الصدقة، وأنَّها تزيد في العمر، وتمنع ميتة السوء، وأنَّها لتُطفئ عن أهلِها حرَّ القبور.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١١٥) برقم (١٤٤٢) كتاب الزكاة. باب قول الله تعالى: {فأمَّا مَن أعطى واتَّقى وصدَّق بالحسنى فسنُيسره لليُسرى وأمَّا مَن بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى، فسنُيسره للعُسرى} الليل: ٥-١٠. «اللهمَّ أعطِ مُنفقَ مالٍ خلفًا». ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٠) برقم (١٠١٠) كتاب الزكاة. باب في المنفِق والممسِك.

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٥٦٢/٤) برقم (٢٣٢٥) أبواب الزهد. باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر. ورواه أحمد في مسنده (٢٩/ ٥٥٢) برقم (١٨٠٢٤) من قوله: مثل هذه الأمَّة مثل أربعة نفر ..." دون أوَّله، ومع اختلافٍ يسيرٍ في الحديث. والله أعلم. والحديث صحَّحه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٣٢٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥) برقم (٧٣) كتاب العلم. باب الاغتباط في العلم والحكمة. ومسلم في صحيحه (١/ ٥٥٩) برقم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضْل مَن يقوم بالقرآن ويُعلِّمه، وفضْل مَن تعلَّم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلَّمها.

وصحَّ عنه ﷺ قوله:" مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تمرةٍ" رواه البخاري(١).

ويقول الله سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

وقد جاء في حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:" بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ (أي: في أرضٍ ذاتِ حجارةٍ سُودٍ كثيرة) فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ (منزلق لسيل الماء) قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ؛ مَا اسْمُكَ؟! قَالَ: فُلَانٌ- لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ- فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ؛ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا؛ فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ" رواه مسلم(٣).

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّه:"إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ " رواه مسلم(٤).

ولذا فالصدقة هي أوَّلُ ما يتمنّاه العبد بعدَ مماته لو رجع إلى حياته، يقول تعالى:﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٥).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٨) برقم (٧٥١٢) كتاب التوحيد. باب كلام الربِّ عزَّ وجلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣) برقم (١٠١٦) كتاب الزكاة. باب الحث على الصدقة ولو بشقِّ تمرة أو كلمةٍ طيّبةٍ، وأنَّها حِجابٌ من النَّار.

(٢) البقرة ٢٦١- ٢٦٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٨) برقم (٢٩٨٤) كتاب الزهد والرقائق. باب الصدقة في المساكين.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٢٥٥) برقم (١٦٣١) كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

(٥) المنافقون ١٠.



قال العلَّامة السعدي- رحمه الله-:" ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ يدخل في هذا النفقاتُ الواجبةُ من الزكاة والكفَّارات، ونفقة الزوجات والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحَبَّة كبذْل المال في جميع المصالح، وقال:﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ ليدلَّ ذلك على أنَّه تعالى لم يُكلِّف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشقُّ عليهم، بل أمرهم بإخراج جزءٍ ممَّا رزقَهم اللهُ الذي يسَّره لهم ويسَّر لهم أسبابه"(١).

والخلاصة: أنَّ الصدقة تجارةٌ مع الله، كلُّها منافع ومكاسب؛ فالله يُضاعِفها أضعافًا مُضاعَفة، ويُخلِف على صاحبها بالخلَف الصالح، فالمال مال الله، ومع هذا يُؤجَر العبدُ على إنفاقه في سبيل الله.

يَا مَنْ تَصَـــدَّقَ؛ مالُ اللهِ تَبْذُلُهُ   فِي أوجُـــهِ الخَيرِ مَا لِلمَالِ نُقصَانُ
كَمْ ضَاعَفَ اللهُ مالًا جَادَ صَاحِبُهُ   إنَّ السَخَاءَ بِحُكْمِ اللهِ رِضْوانُ(٢)

(١) تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن (ص ٨٦٥).

(٢) لم أقف على قائله.


تمت بحمد الله